صالح زيادنة

النادلة الشقراء

وقصص أخرى



صالح زيادنة

النادلة الشقراء

وقصص أخرى

(٢٠٢٥)

النادلة الشقراء وقصص أخرى

صالح زيادنة

الطبعة الأولى

٢٠٢٥م – ١٤٤٦ هـ

صدر عن:

دار سهيل عيساوي للطباعة والنشر.

مقدمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

هذه قصص وخواطر أدبية ولغوية سبق أن نشرتُها في شبكة التواصل الاجتماعي «الفيسبوك» على مدار عقدٍ من الزمان، وأفرغتُ فيها وِطابَ المعرفة، وزبدةَ الأفكار والمعلومات، وضمّنتُها تلميحات أدبية كثيرة ومتعددة.

وقد جمعتُها قبل فترة من الزمن حتى أُرَتِّبَ شتاتَها، وأجمع ما تفرّق منها، وأطبعها فيما لو سمحت ظروفي بذلك.

وقد قامت دار الأستاذ سهيل عيساوي للطباعة والنشر مشكورةً بطباعة هذا الكتاب وإصداره للنور، وأصدرته بحلّة جميلةٍ

وقشيبة، وعلـى ورقٍ صـقيل، وأنـا إذ أشـكر دار النشـر وصـاحبها الزميل سهيل عيساوي كلّ الشكر والتقـدير، وأرى في الـدار منـارة للعلـم، ومـوئلاً لـلأدب والمعرفـة، ومنبعـاً ثـرّاً يتـدفّق في كـل عـام بإصـدارات جديـدة ومتنوعـة، ممـا يصـبّ في مصـلحة الأدب علـى أنواعه المختلفة.

وتقبلوا خالص الودّ والمحبة.

صالح زيادنة

رهط في: الخميس، ٠٦ شباط، ٢٠٢٥م – الخميس، ٠٧ شعبان، ١٤٤٦هـ.

شاي النادلة الشقراء

كنتُ عضواً في البلدية، وكنَّا في المعارضة، وبسبب مواقفنا المتزمتة في ذلك الحين دعانا مكتب الداخلية للمساءلة، فذهبنا قبل الوقت والتقينا في مقهى في بئر السبع، وشرب البعض منا قهوة، وطلبتُ كأساً من الشاي، وأحضرت لي نادلةٌ شقراء كأساً لم يكن لونه يشبه عين الديك، كالشاي الذي نشربه في بيتنا، ولكنه كان أكثر صفاراً، وشعرتُ أن طعمه ألذّ من الشاي الذي نعمله في بيتنا.

وعندما عدنا، ذهبتُ للمطبخ مباشرةً لأُجرّبَ حظّي وأعمل كأساً كالتي شربتها في المقهى، ولكن أم العيال عندما رأتني في المطبخ جاءت تستفسر عن الأمر، وأخبرتُها أنني أريد أن أعمل شاياً بنفسي، وسيكون كما قلت لها أزكى من الشاي الذي نشربه في كل يوم.

وقفتْ مغتاظة، وحدجتني بنظرةٍ لمحتُ فيها شدّة الغضب،

وقالت بحزم: ليش، هو أنا ميتة؟! اجلس عند حاسوبك وسيأتيك الشاي لعندك.

لم يكن أمامي بُدّ، وجلستُ صاغراً أمام حاسوبي المكتبي، وأحضرتْ لي كأساً من الشاي كالذي نشربه في كلّ يوم، ومن يومها وأنا أشرب الشاي كما هو، حتى لو كان طعمه كطعم الجَعْدَة[1]، خوفاً من صَفْعَة تأتي من هنا أو تأتي من هناك، وعندها لن ينفعني الشاي الذي عملته النادلةُ الشقراء.

۞ ۞ ۞

١) – الجعدة: نبتة معمّرة مُرّة الطعم، تنبت في المناطق التي تكثر فيها الحجارة، وتُغلى أوراقها وتُشرب لإزالة المغص وآلام البطن.

ليلى وقيس

كانت ليلى تنامُ في حجرةٍ منفردةٍ بجانب حجـرةِ قَـيْس، وذات مساءٍ جلسا يتحدثان حتى مضى هزيـعٌ مـن الليـل، وأخـذت ليلـى تتثاءب بين الحين والآخر، ثم قالت في دلال:

– هل تأذن لي يا قيس بالذهاب إلى منامي؟

– سُرَّ قيسٌ بهذا الأسلوب المهذَّب، وقـال لهـا بسـرور: تصـبحين على خيرٍ وسعادة.

وبما أن قيساً نام في ساعات القيلولة، فلم يـنم في تلـك السـاعة، بل أخذ يعبث في هاتفه الذكيّ، وعندما فتح حالة الواتس أب وجـد ليلى تضع في تلك اللحظة صوراً مختلفة من موقـع الــ"تيك تـوك"، فابتسم بينـه وبـين نفسـه، وكتـب لهـا هـذه الأبيـات مـن قصـيدةٍ للجواهري:

نَــامِي عَلَــى زبَــدِ الوعــودِ   يُــدَافُ في عَسَـلِ الكــلامِ

نامي تَزُرْكِ عرائسُ الأحلامِ　　في جُـــــنْحِ الظـــــلامِ

وبعث بها إلى حالتها على الواتس أب، ثم أغلق هاتفه ونام.

❁ ❁ ❁

في قسم رياض الأطفال

كنتُ مَرَّة في قسم رياض الأطفال في البلدية لأسجل ابناً أو حفيداً لي، لا أذكر، وكان التسجيل في أَوْجِه، والنساء على باب المكتب بالعشرات، وأنا الرجل الوحيد هناك، وكيف لي أن أدخل بينهن فهذا شيء مستحيل، فقلت موجهاً الكلام لهن: يا بنات هل تؤمِنّ بما جاء في القرآن؟، نظرن إليّ باستغراب، وربما باستخفاف، فقلت: ألم تسمعن الآية الكريمة التي تقول: "الرجال قَوَّامُونَ على النِّسَاء"، ابتسمت بعضهن، وعرفن أن في الأمر مكيدة، وقلن لي: "فوت فوت".

فتسللتُ بلطفٍ وسجّلتُ الطفل، وخرجتُ بهدوء، وكانت بعض النظرات تتبعني وربما تقول، مَنْ هذا الشيخ المتواقح الذي يدخل في دورنا، المهم في الأمر أنني أخرجتُ نفسي من دورٍ طويلٍ كان يمكن أن يمتد لساعة أو أكثر.

مغازلة

كان يجلس بجانب زوجته العجوز، وأراد أن يُسمعها كلمةً حلوةً في ذلك الصباح، فقال لها مبتسماً:

– أتحبينني يا ليلى؟

رمقته بطرف عينها، وقالت له ببرود: يحبّك بَرَص.

ابتلع ريقه وكاد يغصّ به، وسحب نَفَسَاً عميقاً وسكت، لأنه يعرف أن "بَرَص" اسمٌ لكلبٍ شَرِسٍ كان لا يسلم من شرّه أحد، وهذا دعاء عليه بأن يعضّه ذلك الكلب.

قال بينه وبين نفسه متألماً: ضاعت يا سويلم، وحمل حقيبته وغادر.

❤❤❤

مزّقتِ الكتاب

كنتُ حديث عهدٍ بالزواج، وكنتُ أذهبُ لمدينة يافا وأشتري كتباً من هناك، وكانَ من بين الكتب التي اشتريتُها كتاباً بالإنجليزية فيه صور ملوَّنة على ورق صقيل لرسامين مشهورين أمثال رافاييل ومايكل أنجلو وغيرهم، وكنتُ أسهر والكتاب عند رأسي وقاموس صغير أُخرج منه بعض الكلمات وأقرأ على ضوء مصباح الكاز حتى بعد منتصف الليل، حتى جاء يوم لم أجد فيه الكتاب، وبحثتُ عنه طويلاً ولكن دون جدوى، وسألت ابنة العم فقالت إنها لا تعرف أين هو، وبعد فترة طويلة أخبرتني بأنها مزَّقته ووضعته في برميل القمامة لأنني كنتُ أنتبه له أكثر مما

أنتبه لها، والسؤال الذي يطرح نفسه هل نجد اليوم من نسائنا من تكسر الهاتف الذكيّ أو تسكب كأس القهوة على الحاسوب النقّال بطريق الخطأ لأننا نقضي معظم ليلنا على الفيسبوك ولا ننتبه لهن إلا قليلاً.

تسأله في كل يوم

كانت تسأله دائماً، وربما في كلّ يوم: أين كنتَ، وماذا فعلتَ، ولماذا تأخرت؟

وكانت لا تروقه تلك الأسئلة، فقال لها: لا تزعلي يا حبيبتي، غداً سآخذ معي مُصوِّراً، ونصوّر لك المشوار بأكمله بالفيديو، ويمكنك بعد ذلك أن تشاهديه على مهل.

ويقال: إنها غصَّت بريقها، ولم تعد تسأله بعدها.

ولكنني على يقين بأنها ستنسى ما قاله لها، وستعود تسأله في اليوم التالي نفس الأسئلة: أين كنتَ، وماذا فعلتَ، ولماذا تأخرت؟.

أَكْمَلَ المشوار

خـرجَ يتمشَّـى في سـاعاتِ الصَّـباحِ الهادئـة، رأى قُـرْصَ الشَّمس وهو يرتفعُ شيئاً فشيئاً، ورأى شُعاعَهَا يمتدّ كخيوطٍ من الذَّهَبِ الوهَّاج، تذكَّر شَـعر لَـيْلاه، واسـتدَارَة وَجْهِهَـا، وَغَصَّ بِرِيقِه وأَكْمَلَ الْمِشْوار.

◎◎◎

الحصبة

كنتُ في حوالي الثالثة من عمري عندما أخذتني أمي معها وذهبتْ لزيارة إحدى قريباتها، واستقبلتها صاحبةُ البيت وعملت لها شاياً، وملأتْ كأساً كان مع ابنها الذي يكبرني بعدة سنوات، وناولتني إياه، كما قالت أمي رحمها الله، وشربتُ ما به، ولكن ابن المرأة كان يبكي بألمٍ وتوجّع، وكان

مخاطه يسيل على وجهه، وكانت عيناه منتفختين، مما لَفَتَ انتباه أُمّي، فسألت صاحبة البيت، لماذا لا يكفّ ابنك عن البكاء، فقالت: إنه يبكي على كأسه التي مع ابنك.

وكان ابن المرأة مصاباً بالحصبة، وقد أعطتني كأسه عن قَصْدٍ لأُصاب بالعدوى، وعادت أمي وحَصَّبنا جميعاً، عدا أبي الذي كان قد عَتَّقَ من قبل، وأذكر كيف كنا مُمَدَّدِين على الفراش واحداً بجانب الآخر كأننا سمك في علبة سردين، وكان أبي هو الذي يقوم بكلّ أعمال البيت لأن أمّي حَصَّبت معنا.

الخبيزة

رغم أنني مريضٌ منذ أسبوع، إلا أنني استطعتُ بالأمس أن أخرجَ قليلاً من البيت، وكعادة أمّ العود التي تخشى كثيراً عليّ، فلم تتركني أذهب لوحدي، ورافقتني في طريقي حتى وصلنا مكاناً فيه مساحة كبيرة من الخبيزة بلونها الأخضر الجميل.

وبما أننا لم نذق طعمها في هذا العام، فلم نستطع مقاومة إغرائها، فنزلتْ أمّ العود وهي تترنَّح من رِجْلِها المنتفخة، وأخذت تقطف من أوراق الخبيزة الطريّة.

وأَبَت عليّ رجولتي أن أقف موقف المتفرّج، فقلت في نفسي كنوع من التشجيع: "أنا أخوك يا الموت"، ونزلتُ لأساعدَها، وفي كلّ مرّة كنتُ أنحني فيها على الخبيزة كنتُ أشعر بدوخة ودوار، ولكنني تظاهرتُ بالجَلَد والرجولة، ولم أُخبرها بما يحدث لي، وكنت أرمقها بين الحين والآخر حتى لا تَنْعَفِصَ رِجْلُها السليمة وتقع وعندها ينطبق علينا قول "أَتَحْمِلُنِي أم أَحْمِلُك" بمعناه

الحقيقي، وليس المجازيّ كما في قصة شَنّ وطَبَقَة. وبعد أن عُدنا أخذتُ الدواء الذي أتناوله في ساعات الظهيرة ونمت مرهقاً.

وما صحوتُ إلا وبخارها ينبعث من صحنٍ أشبه بالزِّبْدِيّة منه بالصحن العاديّ، وكان لطعمها الحرّيف نكهة خاصة ربما من قرن الفلفل، الذي زادها نكهة وطعماً، وهكذا ذقنا طعم الربيع في هذا العام.

ملاحظة هامة جداً:

الخبيزة تُفرك بمغزل نظيف عند طبخها، ولا تُفرم بالخلاّط الكهربائي، ولدى لفّ المغزل يمنة ويسرة يلتفّ عليه ما يشبه العيدان الصغيرة من أوراق الخبيزة فتُخرجها المرأة وتُعيد الكرّة عدّة مرات، حتى تُخرجها كلّها، أما ما يُفرم بالخلاّط الكهربائي، فهو شوربة بطعم الخبيزة.

غَزَلُ الشيوخ

أحضرتْ له كوباً من الشَّاي وجلستْ بجانبه، وأرادَ أن يغازلَها في بداية العام الجديد بكلماتٍ قد تُشعل فتيلَ مشاعرِها الخامدة، فقال لها مبتسماً: رائحتك الزكيّة يا زوجتي تُذَكِّرني برائحة الكَمُّون على العَدَس.

نظرتْ إليه مستغربةً هذا التشبيه الغريب، وقالت بصوتٍ خَفِيض: «خَلِّي هاليوم يمرّ على خَيْر»، وقامت من عنده وغابت في مطبخها.

هذا نموذج لغَزَلِ الشيوخ فلا تُقلِّدوه أيها الشبيبة.

عندما نكْبُر

شاشةُ حاسوبٍ قديمة كنت أستخدمها في هوايتي المفضَّلة وهي فحص الحواسيب وتشغيلها، وظلَّت الشاشةُ فترةً من الوقت تجلس وحيدةً على الطاولة بسبب انشغالي عنها في أمور الحياة الكثيرة، فامتلأت بالغبار حتَّى تغيَّر لونُها ولم تجد من ينظِّفها أو يعتني بها.

ربما كانت حزينة، وربما كانت تشعر بالوحشة، ولكنها ظلَّت صامتةً ولزمت مكانها ولم تبرحه، إلى أن جاء يومٌ حصلتُ فيه على شاشةٍ رفيعة، لم تكن جديدةً ولكنها رفيعة ورقيقة وواضحة الصورة، فقلت لحفيدي: "ارفع الشاشة القديمة وضع هذه الجديدة مكانها، فهي تأخذ حيزاً صغيراً على الطاولة إضافة إلى وضوحها ودقَّتِها.

تناول حفيدي الشاشة القديمة وحملها بيديه الاثنتين، فهي مكتنزة وثقيلة، ثم رماها بقوة خارج الغرفة، وما استقرَّت على

الأرض حتى ركلها ببسطاره الثقيل فتدحرجت عدَّة مـراتٍ قبـل أن تقفَ وتستقرّ.

نظرتُ إلى الشاشة وإلى نهايتها المأساوية وقلت لابني الذي كـان يقف بجانبي هل رأيت مـا فعـل ابنُـك في الشاشـة، وكيـف رماهـا وركلها برجله بعد أن استغنى عنهـا، وربمـا سـتفعلون بنـا مثلمـا فعلتهم بها بعد أن نشيخَ ونكبر.

نظر ابـني إلـيَّ نظـرة اسـتغرابٍ وتعجـب، ولم يَرُقْـهُ كلامـي، وابتسم ابتسامةً خفيفة ثم سكت ولم يقل شيئاً.

ما أكثر الذين يلاقون نفس المصير بعـد أن يسـتغنيَ النـاسُ عـن خدماتهم، أو لم يَعُد في مقدورهم تقديم خدماتٍ أخـرى، فيتركـون على هامش الإهمال، ويبحث الناسُ عن فرائسَ أخرى تشبع جـوعَ نَهَمِهم وشَرَهِهم الذي لا يعرف الحدود.

عدتُ والعَوْدُ أحمد

عندما رآني ابني تعباً شاحبَ الوجه، سألني بفضولٍ مشوبٍ بشيءٍ من الأسى، وقال: هل ما زلتَ تكتب يا أبي؟

قلت له: لا، لقد طلقتني الكتابةُ عندما رأتني منصرفاً عنها ومشغولاً بغيرها، فقررتْ أن تبعثَ لي ورقة الطلاق بالفاكس، كما فعلتُها أنا من قبل عندما بعثت ورقة استقالتي من البلدية بالفاكس وطلقتُها إلى غير رجعة.

تنهد ابني قليلاً، ولم يعجبه أنني هجرتُ أغلى شيءٍ إلى قلبي وأحبّ شيءٍ لديّ، وهو يعلم أن الكتابة هي رفيقتي، ومُتنفسي وسعادتي الحقيقية.

فقال: عُد إلى الكتابة كما كنت يا أبي، ولا تحمل هموم الدنيا على كاهلك، فتُتعب نفسَك، وتُثقل على قلبك المريض.

وربما وجدتُها فرصةً سانحة لأعود للكتابة ولو بهذه الخاطرة القصيرة، لأقولَ فيها: عدتُ والعَوْد أَحْمَد.

تشكو له ويشكو لها

أرادَ أنْ يتحدَّثَ إليها، بعدَ أَنْ مَلَّ منَ المطالعةِ، وكَلَّ منَ الكتابةِ وضَجِرَ منَ الحاسوب، ولكنَّها كانت مُنشغلةً بنفسِهَا، وهي تَفْحص نِسبةَ السُّكَّرِ المرتفعِ عندَهَا، وتشكو من صداعٍ في رأسِهَا، وبعد أَنْ فَرَغَتْ من عملِهَا هذا استدَارَتْ نحوه، فبادَرَهَا بقولِهِ: أشعرُ بألمٍ في باطنِ قَدَمَيّ، ويبدو أَنَّ المرضَ انحدَرَ نحوهما، وَأَشعرُ بدُوَارٍ في رأسي، ولم أَعُدْ أُبْصِر جَيِّدَاً.

وهكذا بدأَ الحديثُ تشكو له، ويشكو لها، ولا شيءَ غير الشَّكْوَى والتذمُّر، وَيَسْتَمِرَّانِ في الشَّكْوَى على أنغامِ موسيقى قَدِيمَة تَنْبَعِثُ من قَنَاةِ زوينة الفضائية، وَعَلَى المنصَّة ناصِب رَشَّاشه عَلَى المنصَّة...

عدتَ يا يومَ مولدي

بعد يومٍ طويل، زرتُ فيه صديقاً مريضاً، أتمنى له الشفاء، أردت في الليل أن أرتاح قليلاً، وما إن وضعتُ نفسي على السرير وتمَطّيتُ بصلبي قليلاً، ولكن قبل أن أُردف أعجازاً وأنوء بكلكلِ، سمعتُ طرقاً على الباب الحديديّ للغرفة، ثم دخلت ابنتي "عبير" متجهمة الوجه وهي تقول: بابا تعال لأمي، قلت وماذا أصاب أمك وقد كنتُ عندها قبل قليل، وهل هي مريضة، قالت لا أدري بَسْ تعال، قلت: إنها تمثيلية من أفلامك الهوليوودية، هل عملتِ لي حفلة بمناسبة عيد الميلاد، ضحكت وقالت تعال.

نهضتُ متثاقلاً وذهبتُ، وما إن وصلتُ إلا وكعكة كبيرة عليها صورتي وشموع مضاءة وصحون مليئة على كل جانب، والبنات تصطف حول الطاولة، وكل عام وأنت بخير يا بابا، وهات يا بوسات، وأنا أمسح وجهي كما يفعل الأطفال الصغار، ثم خذ السكين وقُصّ الكعكة، قلت: وكيف أقصّ حالي، ولكن في النهاية

قطعوا الصورة، ووزعوا على الأولاد الذين لم يحضروا، ونسيت مرض السكر فتناولت قطعة من الكعكة وقلت ليحدث ما يحدث، وطبعاً شكرت البنات على هذا الكَرَم الحاتمي، وعدتُ للسرير فأردفت أعجازاً في هذه المرّة ونمتُ حتى قبيل الفجر.

ضاعَ الحِزَام

كانت تمشي بخطواتٍ بطيئةٍ متثاقلةٍ تدلّ على الوهنِ والكِبَر وتقدّم العمر، وكان ثوبُها الأسود الفضفاض يكاد يجرّ على الأرض، بلونه الأسود القاتم الذي كأنه ليل امريء القيس قبل أن يُرخي سُدُولَهُ، نظرتُ إليها وإلى ارتخاء ثوبها بغير تناسق، ولم أرَ حزاماً يشدّه أو يعطيه شكلاً أفضل، وعادت بي الذاكرة إلى عقدين من الزمان، وقلتُ في نفسي: أين الحزام؟، لقد ضاع الحزام، لقد ضاع الحزام بالفعل.

وبسرعة ذاكرة الفلاش مرّ شريطٌ من الصور الملونـة علـى شاشـة الذاكرة، ورأيت الحزام الذي كانت تشدُّه المرأةُ علـى وسطها، وإلى لونه الذي يميِّز بين المـرأة الشـابة المتزوجـة وبـين الفتـاة أو المـرأة المتقدمة في العمر.

وكان الحزام الذي تلبسه المرأة يُسمَّى "صُوفِيّة"، لأنه يُصنَع مـن الصوف، أو "حِزَام شَدَّ" لأنه يُشَدّ حول الخصر.

وكان منه لونـان: اللـون الأزرق واللـون الليلكـي أو الزهـري، وكـان يُصنــع في مدينـة بيـت لحــم، وكـانوا يطلقـون علـى اللـون الزهري منها "لون تلحمي" نسبة إلى بيت لحم، لأن النسبة لبيـت لحم تسمى تلحمي لأنه اسم مركّب، وكنّا نقول "لون تلحمـي"؛ أي زهري، وكنا نعتقد أن كلمة تلحمي هي لون من الألوان.

وكانت المرأة الشابة المتزوجـة "تتحَـزَّم" بـالحزام الزهـري، لما فيه من زهو يدلّ على الفتوّة والشباب، أما التي لم تتـزوج أو الـتي تقدّم بها العمـر فتتحـزّم بـالحزام الأزرق، لما في لونـه مـن هـدوء

ووقار.

أما اليوم فصارت ترفل بلا حزام:

ضَاعَ الحِزَامُ..

وكنتُ أرجُو أَنْ يَظَلّ

مثل البراءةِ والطهارةِ والخَجَل.

❁❁❁

دعسوقة

يبدو أن ابني أحمد الصغير (٣ سنوات) رأى "أمّ بريص" على زجاج النافذة، فجاءني خائفاً وهو يقول: "بابا دَعْسُوقَة سَوَّتْ لي دَمّ"؛ ودَعْسُوقَة هذه هي حشرة من أفلام الصور المتحركة، أما حفيدي ياسر، وهو في نفس الجيل فيلفظ الألوان بالإنجليزية، فإذا قلت له هذا أسود، يقول لا هذا "بْلاك"، وكذلك مع "رِدْ" و"غْرِين" وغيرها، وهذا من تأثير بعض القنوات العربيّة التي تُطَعِّم أطفالنا بهذه الألفاظ وكأننا ملزمون بمعرفتها، وهناك لفظ الأعداد

بالإنجليزية: وَنْ، تُو، ثْرِيْ، وهناك أسماء الفواكه: أَبل، وأُورَانج وغيرها كثير.

دعونـا نعـرف لغتنـا أولاً، وبعـدها لا بـأس لـو عرفنـا لغـات أخرى، أما أن يُرضعوا أطفالنا بهذه الألفـاظ وهـم يتعثَّـرُون في لفـظ لغتهم الأُمّ، فأرى أنَّه نوع من التـدجين المبكِّـر وفـرض لغـة الغـير ليس أكثر.

سناء والعُمرة

كانت سناء في الصفّ الأوّل عنـدما سجّلنا للعُمـرة، وهـي آخـر العنقود عند أُمِّها، وآخر العنقود سُكَّر معقـود كمـا يقولـون، وَعَـزَّ على أُمِّها أن تـذهب وتتركهـا خلفهـا. فبـدأتْ تتحَقْـرَص وتتلـوَّى وتتذمَّر وتقول إن إخوان سناء سيضربونها أثناء غيابنا، ومَن سيعدّ لها الطعام وأُمّها في العُمـرة، وذهبـتُ لمعلمـة سـناء وشـرحتُ لهـا الوضع، فقالت: توكَّلوا علـى الله سأُعَوِّضـها عـن كـلّ الـدروس بعـد

عـودتكم بالسـلامة، وبالفعـل بَـرَّت المعلمـةُ مشـكورةً بوعـدها، وعوّضتْ سناء حتى صارت من الأوائل في الصفّ.

وفي العام التالي ذهبنـا للعمـرة أيضـاً، وعـادت أمّهـا لتسـمعني نفس الشريط، وأخذنا سناء معنا للعمرة، وفي عمرةٍ ثالثـةٍ ورابعـة اصطحبنا سناء معنا فعمّرت أربع مـرّات، وفي العـام الماضـي عنـدما سجّلنا للحجّ بدأت سناء تتحَفْتَل وتـأتي بحجـج وذرائـع وأنّ أمَّهـا مريضة ورِجلها منفوخة وبحاجة لمن يقف معها ويساعدها، ولكـن رسـوم الحـج الباهظـة وقفـت في وجـه سـناء وحالـت بينهـا وبـين الذهاب معنا، وأنهـت سـناء دراسـتها الثانويـة في العـام الماضـي، ولكنها ما زالت تَزِنّ لتذهبَ معنا في عُمراتٍ أخرى.

الفقر نعمة

قبل سنوات تدهور وضعنا الاقتصادي ومررنا بفترة صعبة حاولنا فيها محاولة المستميت أن نعيش ولو على أقل القليل.

وكانت مع ابني سيارة، وفكرنا أن نلمّ حديداً صدئاً لنبيعه على محلٍ لحديد الخُرْدة، فربما يساعدنا ذلك مهما كان قليلاً.

وبالفعل ذهبنا ذات صباح وبدأنا نبحث في وادٍ عميق، هذه حديدة وهناك أخرى وواحدة مغطى نصفها بالتراب ونحفر عليها ونخرجها حتى جمعنا ما وجدناه في ذلك اليوم.

وذهبنا لمحل الخردة وبعنا ما معنا بخمسين شيكل فقط، وقال ابني نقسمها بالنصف، لك نصف المبلغ ولي مثله، وكان وضعي أفضل من وضعه وهو ذو عيال، فقلت أنا سآخذ في يوم آخر أما اليوم فالمبلغ لك، وكنت لا أفكر في المال، بل كنت أفكر في الفقر كيف ينقّي النفوس ويهذّب الأخلاق، ويجعل الإنسان يحبّ أخاه الإنسان.

وفي السنوات التي تلت ذلك كان البطر قد استفحل، والأخ كره أخاه، والابن تنكّر لأبيه، والجار يحسد جاره، وكل شخص لا يقنع بما لديه، ولا يريد الخير لغيره بل ربما سعى في إزالة النعمة عنه، وفي مثل هذه الظروف فالفقر نعمة، فعسى أن يزيل أدران الغيرة والحسد، وثآليل الزهو والكبرياء، وأن ينقّي النفوس من أهوائها حتى تعود لوضعها الطبيعي.

فالفقر نعمة... الفقر نعمة.

❋ ❋ ❋

حذائي الجديد

قبلَ عدَّة سنوات اشتريتُ حذاءً جديداً، وقِسْتُه على قدمي فكانَ ملائماً لا يزيد ولا ينقص، وبعدَها بأيام ذهبنا للعُمْرَة، ولبستُ حذائي الجديد ولكنَّه في هذه المرة كان ضَيِّقاً ويؤلمني في أصابع قَدَمَيّ، وفي الحافلة خلعتُ الحذاء وبقيتُ بالجوارب، وأَدّينا

العمـرة، وبعـدها وجـدتُ أنّـي نسـيتُ جـواربي مضـغوطةً داخـل الحذاء، وهي التي سبّبت هذا الضيق الذي كنتُ أشعر بـه..

ولا أُنْكِر أنَّ أُمَّ العيال ضحكت مني.

كِدْتُ أَنْ..

أصابتني حُمَّـى شـديدة منـذ يـومين، ولكنَّهـا ازدادت بـالأمس وتغلغلت في عظـامي، وأصـبحتُ لا أقـوى علـى الوقـوف، ولكـنني تظـاهرتُ بالشـجاعة والجلَـد، وتناولـت مُسَـكِّنًا مـن "الأكـامول"، وحاولتُ أنْ أُقنعَ مَنْ في البيت بأنني "جَمَل الْمَحَامِـل"، ولكـن أيـن لي.

بللتُ منديلاً بالماء البارد ووضعتُه على جبهتي ورأسي ليخفِّـفَ عني بعض الشيء، وطلبت من أمِّ العيال أنْ تصورني وتضع الصورة في حالة الواتس أب للتسلية بطبيعة الحال، ففعلـت، ولكـن مـا إن

رآها ابـني حتـى رَنَّ التلفـون وقـالَ احـذفها لـو سمحـت، ورَنَّـتْ تلفونات أخرى بنفس المعنى فحذفتُها صاغراً.

ومـا إن حَـلَّ المسـاء حتـى كـان المـرض قـد تمكّـنَ مـني تمامـاً، وأصبحت بحاجة لمن يساعدني على الوقوف، تمثلتُ بقـول سُـمْعَة "أنا أخوك يا الموت"، ولكن كل ذلك لم ينفع، ولا بدّ من طبيب.

وبعد فحوصاتٍ روتينية كانت الحُقنة في يـد الطبيـب، أشـحتُ بوجهي حتى لا أراها، فأنا أكرههـا منـذ كنـتُ صـغيراً، ولكـنني شعرتُ بوخزتها وكأنها تمزِّقُ لحمـي تمزيقـاً، خرجـتُ مـن بـاب العيادة وأحد أبنائي يمسكني من اليمين وآخر مـن الشـمال، وأحـد أحفادي يقول: "سلامتك يا جد"، المهم أوصلوني السـرير ووَضَـعَتْ ابـنتي الحَاسُـوبَ عنـد رأسـي، و"عَهْـدِي بِعَسْـقَلان مَدِينَـة"، كمـا يقولـون، وعنـدما اسـتيقظتُ فجـراً وَجَـدْتُ الفِـرَاشَ قـد تَبَلَّـل مـن العَرَق، وشعرتُ بتَحَسُّنٍ ملحوظ، ولكن الشيء الـذي أحـزنني هـو ذلك الحاسوب الذي ظلَّ طيلة الليل عند رأسـي ولم أسـتطع التفـرّغ

له، ولكنني اليوم سأُعِيدُ إليه اعتباره.. أُعِيدُ إليه اعتباره.

❁ ❁ ❁

أكلنا هوا يا خال

التقيتُ قبلَ عدة أيامٍ بأحد الأقارب الذين لا أراهم إلا قليلاً أو في بعض المناسبات، وكان يكبرني بحوالي خمس سنوات، وأنا من خؤولته، فحييتُه مبتسماً وصافحته، فنظر إلى الشَّعرِ الأشيب في يدي التي تصافحه، ونظر إلى يده أيضاً ففهمت ما يقصده، فقلت له ممازحاً: كبرنا يا خال، فقال: والله يا خال أكلنا هوا، والله يا خال أكلنا هوا.

وضحكتُ من هذا الهوا الذي أكلناه، والذي لم يخطر على بالي من قبل، ويبدو أننا بالفعل أكلنا هوا.

❁ ❁ ❁

أبي وأخته

كَانَ لأَبي أخت أكبر منه سناً، وكانت متزوجة، وذات يوم اشتكى زوجها من بعض تصرفاتها، فقال له أبي: اضربها وألحقني إياها، وسأوبخها وأعيدها لبيتها بعد أن أصل، وما رمى الرجل كلمة أبي في "بير خالي" كما يقولون، فضربها وطردها لبيت أهلها، وعرفت من زوجها أن أبي هو الذي قال له ذلك.

وعندما عاد أبي للبيت وجدها أمامه، وهي تدعو وتقول: حسبي الله عليك يا إسماعيل، فضحك أبي من قصتها مع زوجها، وراضاها.

فرحمة الله عليهم جميعاً.

☆☆☆

زائرتي

وَزَائِرَتــي كَــأنّ بهَــا حَيَــاءً .... فَلَـيسَ تَــزُورُ إلاّ في الظّــلامِ
بَذَلْتُ لهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا .... فَعَافَتْهَــا وَبَاتَــتْ في عِظَــامي

هكذا قال المتنبي عندما زارته الحمَّى، وقال خليـل مطـران مـن بعده.

دَاءٌ أَلَمَّ فخِلْتُ فيهِ شِفَائي ..... من صَبْوَتي، فتَضَاعَفَتْ بُرَحَائي

ويبدو أنّ أحد جنود الحمّى انطلق على وجهه حتـى ألقـى عصـا التسيار في ساحتنا، وقد طاب لـه المقـام فنصـب خيمتـه وضـرب أطنابه، واسترخى غير مستعجلٍ على الرحيل.

حاولت أن أصرفه بذوق ببعض المُسَكّنات ولكنه سـخر مـني ولم يبرح مكانه، أردت أن أستعين بصديق فلم أجد أفضل مـن الطبيـب فوخزني بإبرة سميكة لو وخز بها فيلاً لوقع مغشياً عليه، وأحضر لي حفنة من الحبوب وكأس ماء وقال خذها مـرة واحـدة فامتثلـت

لأمره مرغماً، ولكنني عند الخروج كنت بحاجة لمن يمسك بيدي ويقودني حتى مقعد السيارة.

وما وصلت البيت حتى كان العرق يسيل ويتصبّب مني وكأننا في شتاءٍ من العرق، لم أذكر بعدها ما حدث لأنني غرقت في نوم ثقيل كنوم الدب القطبي في فصل الشتاء، وكانت أم العيال تأتي بين الحين والآخر لتفحص إن كنتُ ما زلت حياً أم لا.....

ومضى أسبوع وأنا أتحسّن صباحاً ثم تعودني الحمى في ساعات الظهر وما بعده، ولكنني أقول لها ما قاله المتنبي:

فإنْ أمرَضْ فما مرِضَ اصْطِباري ..... وَإنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعتزَامي

إذا بِدَّك تفضح الأسمر

كانَ أبو العبد رحمهُ الله أسمر البَشَرَة، وكان يلبسُ الحطَّة والعقال مثله مثل من هم في جيله، وكان أحياناً يلبس منديل شماغ أحمر، فيبدو أكثر سمرة من ذي قبل، وكان يقول عندها: "إذا بِدَّك تفضح الأسمر لَبّسه أحمر"، فرحم الله أبا العبد وأسكنه فسيح جناته.

❤❤❤

يجزّ وَبَرَك

قبل سنوات كان أولادي يتعلمون في مدرسة ابتدائية، وكنت أزور المدرسة في بعض الأحيان، وكان مديرها قد علّمني صغيراً، وكانت تُعلّم عنده معلمةٌ من الشمال، وقد تجاوزت الثلاثين من عمرها وهي غير متزوجة، فقلت للمدير: زوّجني هذه المعلمة؟.

فقال: تريد أن تتزوج!، الله يجزّ وَبَرك يا بعيد، وكنت أضحك

من جملته هذه كثيراً، وقبل عامين خرج المدير إلى التقاعد، ولكن معزَّته ما زالت عندي كما هي، وما زالت جملته: الله يجزّ وَبَرَك تَرِنّ في أذني حتى اليوم.

❂❂❂

ضعيفُ المال وضعيف الرجال

كنتُ في بلدةٍ مجاورة، وجلستُ أتحدَّثُ مع شيخٍ وقورٍ تجاوزَ السبعين من عُمره، وقَادَنا الحديثُ إلى قِلّة الوفاء عند البعض، والتي تَصِلُ في بعض الأحيان للغدر والخيانة من طَرَفٍ تأتمنه وتثق فيه وترتاح له، فكانَ مما قاله ذلك الشيخ: "رَبِّي ضَعِيف مالك ينفعك، ورَبِّي ضعيف رجالك يقلعك"؛ وضعيف المال هي الخراف الهزيلة تربيها وتعلفها حتى تسمن فتبيعها وتستفيد من ثمنها، أما ضعيف الرجال فهو ضعيف الشخصية الذي تُشفق عليه وتَسعى لتُوفِّر له مكانَ عمل، ولكن ما إن يبدأ في العمل ويستقر به

الحال حتى يَشِيَ بك ويسعى في طردك من مكان عملك، ليخلو له الجو ويبعدك ويأخذ مكانك.

ولا تقتصر هذا الفعل على مكانِ العمل وحَسْب، بل يُمكن أن يَحْدثَ في أيّ مجالٍ آخر.

ويبدو أن النصف الثاني من هذا المثل ما زال منتشراً، وما زال كثير من ضعاف النفوس يُقابلون الإحسان بالإساءة، ويندر أن تصدر مثل هذه التصرفات عن شخصٍ يحترم نفسه ويثق بشخصيته، فإذا حدثَ أن رأيتَ أحداً منهم، فسارع إلى وضعه في الخانة الثانية "ربي ضعيف رجالك يقلعك".

☆☆☆

العود وقشرته

كَانَتْ جدّة الأولاد في زِيَارةٍ لنا، وهي عجوزٌ في الثمانيناتِ من عُمْرِهَا، وَبعثَتْ اِبْنَتِي الكُبْرَى شيئاً من طَعَامٍ أَعَدّتهُ خِصِّيصاً لَهَا،

وَعِندما عَلِمَتْ العجوزُ بِذلك ابتسَمَتْ وَقَالَتْ: "مَا بيحِنّ عَلَى العُـود إلاَّ قِشْرته.

ومـن ذلـك اليـوم وأَنَـا أَتَـذَكَّرُ العُـودَ وقشـرَتَهُ، وَلكـن يَبْـدُو أَنَّ عِيدَانَهُم أَطْرَى وَأَلْيَن مِنْ عِيدَانِنَا، رُبَّمَا.. رُبَّمَا!.

❀❀❀

براد الشاي

حدّثت أمي رحمها الله أنها عندما كانت في بداية زواجها كانت تذهب عند خالـة لهـا لا يبعـد بيتهـا كـثيراً عـن بيتنـا، وكانـت تتحدث عندها بعض الوقت، وذات يوم عنـدما قَـدّمتْ لهـا الشـاي قالت: "وحيـاة بـراد الشـاي اللـي جمعنـا"، فنفـرت أمـي وكانـت عصبية وحادة المزاج، وقالت لها: وهل ينقصني شاي حتـى أجـيء وأشربه عندك، وغسلتها وشطفتها كما يقولـون، وذهبـت ولم تعـد إليها مرة أخرى.

السُّرَّة المقطوعة

أحمد الصغير، ككُلِّ الأطفال، يُحِبّ أن يركبَ في السيَّارة، وكثيراً ما يقف مُكشِّراً ينتظر من يأخذه معه، وإذا تركوه يُلقي بنفسه على الأرض ويبدأ يَتَفَعْفَلُ ويصرخ حتَّى يأخذوه معهم، فقلت له: "هو أنت سِرّك مقطوع في السيَّارة". أي لماذا أنتَ مُتعلِّق بها هذا التعلُّق.

وكانت أُمِّي رحمها الله تقول لأخي إذا تأخر عند أصدقائه أو عند الجيران: "هو أنت سِرَّك مقطوع عندهم".

وليسَ ذلك وحسب، فقد كانت أمي رحمها الله تَخْزِن البسكويت وأغراضها الأخرى في صُندوقٍ خشبيٍّ كبير، وكُنَّا نَلفُّ حول الصندوق نريد البسكويت، فإذا أكثرتُ من اللَّفِّ والدَّوَرَان، تقول: "هو أنت سِرَّك مقطوع في الصندوق، ثم تفتحه وتطعمنا من البسكويت.

وكلمة سِرّ هنا تَعني الحَبْل السُّرِّيّ، وكانت المرأة عندما تلد

تترك مقدار ١٠ سم من سُرَّة الطفل وتقطع الباقي، وتلفّ شريطةً من قماشٍ حول سُرَّة الطفل وتشدُّ عليها بخيطٍ متينٍ حتى لا يخرج النَّفَسُ منها، وتدهن أسفلها بزيتِ الزيتون، وخلال عدة أيّام تذبل هذه السرة وتنقطع لوحدها، وكانت أمي تخبِّئُ سرّةَ أحد إخواني في صندوقها المذكور، وإذا ما أكثر من اللف والدوران حول الصندوق، تقول: آه، أنت سرك مقطوع في الصندوق، بمعنى لا غرابة فيما تقوم به فحبلك السري هناك، ومن تنقطع سُرَّتُهُ في مكانٍ يَظَلّ مُتعلِّقاً به، كما كانت تعتقد الأمهات.

أما الفعل "تَفَعْفَلَ" فهو يُشبه الفعل "تَمَرَّغَ"، ولكن التَّمَرُّغَ يكون في الترابِ، والتَّفَعْفُل يكون على الأرضِ الجَلَدَة أو البلاط أو غيرها.

☆☆☆

تقويم

قبل عصر الحواسيب كنا نتلهَّى بالكتابة والمطالعة والرسم أحياناً، وكنتُ أشتري دفاتر حساب من ذات المربعات الصغيرة، وأعمل تقويماً للسنين، فعرفت من خلال هذا العمل أنَّ السنة العادية غير الكبيسة إذا بدأت بيوم، فهي تنتهي به، فإذا كان هذا العام قد بدأ بيوم الأربعاء، فهو حتماً سينتهي بيوم الخميس.

أما السنة إذا كانت كبيسة فهي تبدأت بيوم الجمعة وتكون نهايتها يوم السبت، ليبدأ العام الذي بعدها بيوم الأحد.

معلومات أخذت منا جهداً كبيراً، يمكن الحصول عليها اليوم بضغطة زر، ولكن الشيء الذي نتعب عليه نشعر بطعمه، وكل عمل نبذل فيه جهداً نشعر بحلاوته.

❀❀❀

عصر التطوّر

في عصر التطور العلمي والتكنولوجيا الحديثة وصلَ الإنسـانُ إلى انجازاتٍ لم يكن يتصوَّر أن يصلَها في يـومٍ مـن الأيـام، ورغـم هـذا التطوّر الهائل والمذهل لو طلبنا من علماء الـدنيا قاطبـةً أن يصـنعوا لنا بذرةَ قمحٍ تمدّ جذورَها في الأرض وتخرج أوراقها إلى أعلى، ولو سهَّلنا عليهم الأمر بعض الشيء، وقلنا لهـم إن بـذرة الأبوكـادو في حجم البيضة، وطلبنا منهم أن يصنعوا واحدةً مثلـها تنمـو وتنبـت وتترعرع، من الآن وحتى مليون سنة قادمة فهل يسـتطيعون، وإذا كـانَ الجـوابُ بـالنفي، ولـيس هنـاك جـواب غـيره فلمـاذا يتكبّـر الإنسانُ، ولماذا يُسَخِّر عِلْمَهُ لقتلِ أخيه الإنسان، أم أنه جُبِـلَ علـى الشرِّ بطبيعته، إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْـمِ إِلاَّ قَلِيلاً.

بطيخ فاسد

اشترى بطيختين من محلّ الخضراوات، عاد فرحاً مسروراً، فتح الأولى فوجدها فاسدة، فوضعها جانباً، وتناول الثانية وفتحها فوجدها فاسدة هي الأخرى، لم تكن لديه ثالثة ليطفىء الشمعة ويأكلها "على العَمَيَة" كما فعل جحا مع التفاحة الثالثة، وضع البطيختين في كيس نايلون وأرجع البضاعة الفاسدة لأصحابها، وفي طريق عودته اشترى قنينة كولا باردة، وارتشف منها مغتاظاً وهو يتمتم بهدوء: "كولا باردة ولا بطيخة فاسدة، كولا باردة ولا بطيخة فاسدة".

❀ ◎ ❀

كل واحد ينَقِّي شوكَه بايده

كان عندي أحد الأصدقاء من بلدةٍ مجاورة، ودار بنا الحديثُ حولَ قصةٍ حدثَتْ معه، وأرادَ أقاربُه أن يتدخَّلوا فيها، الأمر الذي

سيزيدها تعقيداً، ويجعلها تكبُر عن حجمها الطبيعي ويصعب التحكُّم بها بعد ذلك، فأقنعهم بأنه ليس بحاجة لتدخّلهم، وأنّه سيحلّ مشكلته بنفسه، وكان مما قال لهم: "كلّ واحد ينَقّي شوكَه بإيدِه"، أي ليحلّ كلُّ شخصٍ مشكلتَهُ بنفسه ولا يُقحم بها الآخرين.

أعجبتني العبارة وما تتضمّنه من تشبيهٍ جميل، وعادت بي الذاكرة إلى زمنِ الطفولة حيث كانَ الأولادُ يلعبون حُفَاةً وتمتلئ أقدامُهم بالشوك، ويُنَقّي كلُّ واحدٍ منهم ما عَلقَ بقدمه من شوك، تشبيه جميل أنقله لكم كما هو..

في ضلع سمين

أحياناً يَشِتُّ بي التفكير في عوالم اللغة وخفايا الألفاظ، وأسرحُ بعيداً في ربيعِها الأخضر، وقد أعودُ بشيءٍ أو أعودُ خالي الوفاض

إلا أنني في الحالتين أشعرُ بارتياحٍ وغِبْطة.

وحَطَّ بي التفكير إلى جملة "في ضِلْع سمين" التي يستعملها الناس للتأكيد على أنَّ الأجْرَ أو المستحقّات لا خوف عليها وستُدفع في وقتها، وربما يُسْتَدَلُّ منها أنَّ هناك من يتكفَّل بالدفع في حالة تأخَّر المدِينُ أو ماطلَ وتهرَّب.

وعندما يتعامل شخْصٌ مع آخر ويخشى الطرفُ الثاني على نقوده ويتردّد بين الرفضِ والقبول، يقول له طرفٌ ثالث من الحاضرين: "دراهمك في ضلع سمين"؛ أي أنَّ مالَكَ محفوظٌ وستستلمه كاملاً غير منقوص، ولا نُنكر أنّ هذه الضلع السمينة تكون أحياناً خاليةً من اللحم وتُصبح وعودها بلا رصيد ولكنها في الكثير الغالب تصيب.

الزوابع

عندما كنا صغاراً كنا نرى الزوابع وهي تهبّ بكثرة في فصل الخريف، وكانت بيوتنا من الشَّعْر، فإذا كانت الزوبعةُ قويةً فهي تهدم البيوت أو تمزّق شيئاً منها، وفي هذا ضرر وأذى لصاحب البيت ولا بدّ من حلّ يقي أصحاب البيت من هذه الزوابع الهوجاء، ويُبقي عليهم بيوتهم صالحةً سليمة.

وعندما كانت تأتي زوبعة من الغرب تلفّ حولها القشّ والعشب اليابس والأوراق المتطايرة، فما إن تراها أمي تقترب حتى تتصدَّى لها بقولها: "حُودِي حُودِي يا مبروكة، بيننا وبينك الله، حُودِي حُودِي"، والغريب في الأمر أن الزوبعة تنحرف عن مسارها ولا تدخل البيت، وحتى لو كانت قريبة وأدركها الدعاء فهي تتأنَّى قليلاً وتلفّ حول نفسها وتبتعد عن البيت وتسير في طريقها، وهذا واقعٌ يعرفه أهلُ الصحراء وليس فيه شيء من نسج الخيال.

إِذَن، فالزوبعة تفهم، وتسمع الدعاء وتفهـم معنـاه، ولا بـدّ أن يكون فيها ماردٌ من الجنّ يحرّكها ويسير بها، وهذا هـو الاعتقـاد السائد عند الناس.

وليست قصص الزوابـع وارتباطهـا بـالجن مقصورة علـى أهـل البادية وحدهم، بل هي أقدم من ذلك بكثير، ونجد أن ابن منظـور يعرِّف الزوبعة بقوله: "وزوبعة: اسمُ شيطانٍ مارد، أو رئيسٌ مـن رؤساء الجنّ؛ ومنهُ سُمِّيَ الإعصارُ زوبعةً".

أما ابن شُهَيْد الأندلسي فقد كتب رسالةً أدبيةً يتحاور فيها مـع شياطين مـن سبقه مـن الشـعراء، وجعـل اسمهـا "رسـالة التوابـع والزوابع" وهو يقصد بذلك الجنَّ والشياطين.

فالأمر قديم كما نـرى، غـير أن ارتبـاط الباديـة بـالزوابع يظـل أكثر مما سواها، نظـراً لفسـاحة الصـحراء وخلائهـا ممـا يجعلـها مسرحاً رحباً تمرح فيه الزوابع من غربه لشرقه. وأصـبح منظرهـا ووجودهـا شـيئاً مألوفـاً عنـد أهـل الباديـة، إضـافة إلى اعتقـادهم

بارتباطها الوثيق بالجن والعفاريت كذلك.

أما لماذا تتجه الزوابع دائماً نحو الشرق، ولم تُغيّر مسارها ولو مرة واحدة وتتجه غرباً، فهذا ما أوضحته سِيَرُ الأقدمين وقصصهم، ففي سيرة سيف بن ذي يزن يذكر أنّ للجن ممالك في أقصى الشرق في جبلٍ يُعرف بجبل قاف، فالزوابع أو من فيها من الجنّ عندما يتجهون شرقاً، فهم يعودون إلى مساكنهم وممالكهم في ذلك الجبل القصِّي البعيد.

هذا والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

زرعك ما قاص

كنتُ في بنك البريد، وكانَ فيه طابورٌ من الناس يتزاحمون كلّ يُريد أن يصل إلى شبّاك الموظف، وكان أحدُ الشيوخ جالساً فقام عندما اقتربَ دوره، ورآني أقترب منه فقال لي بشيء من عدم الرضى: " أنتَ زَرْعك ما قَاص"؛ أي لم يصل دورُك بعد فلماذا تقترب، وكان بجانبي زميلٌ لي فقلت له هامساً: وجدتُ عبارةً جديدة، فقال: ما هي؟ فأخبرته، فأضافَ ولكننا نعرفُها، فقلت: أجل نعرفها ولكنها تغيب عن بالنا وها قد ذكَّرنا بها هذا الشيخ الجليل.

عدت إلى البيت والعبارة تلعب في رأسي، ورجعت بذاكرتي إلى سنين خلت، وإلى الوقت الذي كان فيه الزرع جزءاً من حياةِ الناس، واليوم لا زَرْع ولا قَلْع.

كان الزرعُ عندما ينضج ويجفّ على عوده، فإذا لم يُحْصد في وقته، فكانت سنابلُه تميل وتنحني إلى الأسفل، حتى تكاد تسقط،

ويتكسَّر بعضها، وعندها يكون الزرع قد قَاصَ بالفعل.

ويستعير العرب هذه العبارة ليعبِّروا بها عن شيءٍ آخر، فعندما تكبر الفتاة وتنضج وتكون قابلة للزواج أو تنتظره وترغب فيه، فيقولون عنها: هذه الفتاة قايصة على عودها، أي أنها ناضجة وقد فات وقت زواجها.

وكانوا يقولون أيضاً: "زي النار في الزَّرْع القَايص"؛ أي أنّها تلتهمه بسرعة وتأتي عليه نظراً لجفافه وسهولة اشتعاله.

وفي مادة "قيص" من لسان العرب: قَاص، وتقيَّص: انشقَّ طُولاً فسقط.

ونحنُ نقول: قَاصَ، يَقِيصُ، قَيَصَاناً، ومن هنا نفهم أن القَيَصَان هو حالة الزرع الذي فات وقت حصاده فمال وانحنت سنابله وتكسرت بعض عيدانه وسقط بعضها الآخر.

❀ ◯ ❀

البريزة المفقودة

كان ذلك في بداية سنوات السبعين من القرن الماضي، وكنا نعيش في بيت شَعْر كالبيوت القديمة التي كان يستعملها البدو في صحراء النقب، وكان قبل ذلك قد توفي أخٌ لي في أواخر العام ١٩٦٩ بعد مرضٍ أقعده وقضى عليه، وأنفق أبي كلّ ما كان معه وما كان يدخره من نقود أثناء مرض أخي، ولم يبق معه شيء لينفقه على البيت أو يصرف منه على أولاده.

وذات يوم انتهى الطحين من البيت، وكانت النساء تعد الخبز في البيت، وإذا انتهى الطحين فليس هناك خبز، وهو ركيزة الطعام عند الناس، وكثيراً ما يكتفون به ويأكلونه ساخناً عندما ينزل من على الصاج مباشرة ولا يأكلون معه شيئاً آخر، وكان طعمه لذيذاً وهو جديد وطازج.

لم يكن لدينا جيران لتأخذ منهم أمي طحيناً وتصنع لنا خبزاً، فقد بنى أبي بيته على مكانٍ مرتفع من أرضه الخاصة التي ورثها

عن أبيه، وبعد أن تقاسم الأخوة أرض أبيهم سكن كل واحد منهم في القطعة التي خرجت من نصيبه، وكانت قطعة أبي أعلاهن وأبعدها عن القطع الأخرى.

فكرت أمي أن تلهينا وتسكت جوعنا برغيف خبز إفرنجي "شخور"، وكان ثمنه ليرة واحدة، وكانت الليرة مكونة من قطع أصغر منها، منها "الشلن" وهو عبارة عن خمس أغورات، و"البريزة" وهي قطعة برونزية صفراء على جهةٍ منها صورة نخلة، وكانت البريزة عبارة عن عشر أغورات، وكل عشر قطع منها تساوي ليرة واحدة.

بدأت أمي تجمع البرايز من هنا وهناك، من صندوقها حيناً ومن محفظة أبي حيناً آخر، فاستطاعت بعد بحثٍ طويل أن تجمع تسع برايز وبقيت بريزة واحدة ناقصة لنكمل الليرة ثمن رغيف الخبز ولكننا لم نجدها.

حاولت أمي تكتكة كل مكان في بيتنا وفي صندوقها الخاص

ولكنها لم تجد، وبقينا نتضور جوعاً ولا نجد اللقمة أو تلك القطعة الناعمة من رغيف الشخور.

عمد أبي إلى بعض الحبوب القليلة التي كانت في كيس كتلك التي تنثرها أمي لدجاجاتها، وأتى بقلاية القهوة ووضعها على النار وملأها بحبوب الحنطة وحمصها لنا حتى أصبحت شقراء هشة، ودعانا لنأكل منها وأخبرنا أن اسمها "قلية"، وكنا صغاراً وأسناننا جديدة وقوية فقرشناها قرشاً ووجدنا فيها لذة أسكتت جوعنا بعض حين.

كانت أمي تفكر مقهورة ماذا تفعل وكيف تحصل على نقود تشتري لنا بها كيساً من الطحين، بينما كان أبي يجلس قرب الموقد يشعل ناره ويعدّ قهوته ولا ندري بماذا كان يفكر.

وفي اليوم التالي، وكان يوم خميس، وفي كل يوم خميس كان يقام سوق للبدو في مدينة بئر السبع، وما طلع صباح ذلك اليوم حتى ذهبت أمي لبئر السبع وهي تحمل شيئاً ثقيلاً تلفه في كيس

وتحمله على رأسها.

وما مضت عدة ساعات من النهـار إلا وقـد عـادت وأعطـت أبـي مبلغاً من المـال ليشـتري لنـا طحينـاً وطعامـاً مـن البقالـة الوحيـدة الموجودة في المنطقة.

وغاب أبي بعض الوقت وعاد ومعه صاحب البقالة وقد أحضر لـه كيسين من الطحين وكمية من العدس المجروش والبقوليات وبعض الأطعمة الأخرى.

وعندما سألنا أمي عن الشيء الـذي كانـت تحملـه علـى رأسـها أخبرتنـا أنهـا أخـذت بسـاطين مـن البسـط الثمينـة الـتي عنـدها وباعتهما في سوق الخميس وأحضرت ثمنهما لأبي ليشتري لنـا مـا يسد جوعنا ويكفينا مؤونة الحاجة حتى ولو بعض حين.

وكان عمل تلك البسط يحتـاج لعـدة شـهور مـن الغـزل والـبرم والنسج، وكانا يبسطان للضيوف ومن لا يوجد عنده بسط فكأنـه لا يوجد لديه أثاث أو ما يفرشه لضيوفه؟

وهكذا هي حـال الـدنيا، وبعـد مـرور أعـوام طويلـة علـى تلـك الحادثة ومرور أكثر من عشرين سنة على وفاة أبي وأمـي رحمهمـا الله، فما زلت أتذكر قصة رغيف الخبز الـذي لم نسـتطع شـراءه في ذلك اليوم، وقصة البريزة المفقودة التي حرمتنـا مـن شـراء رغيـف الخبز في ذلك اليوم.

❀✪❀

الجمّيز ما بيطْرَح تفّاح

كانَ أبو إبراهيم صديقاً لأبي، ، وكان في مثل جيله أو أكـبر منـه بقليل، وكان ضريراً كفيف البصر، ولكنه كان يُبصر ظلال الأشـياء فلا يحتاج لمن يقوده أو يدلّه على المكان الذي يريده.

وكـان يلتقـي مـع أبـي في سـاعات النهـار فيحتسـيان القهـوة ويتذاكران بعض الأحاديث والذكريات.

وكانت لأبي إبراهيم أمثال خاصة به قلَّما تسـمعها مـن غـيره،

وذكرا يوماً شخصاً فيه خلال وصفات رديئة، ولم يكن نسله بأفضل منه، فما كان من أبي إبراهيم إلا أن قال: "عُمْـرَك شُـفت الجمّيـز بيطْرَح تفّاح".

ويبـدو أنَّ الجمّيـز حقّـاً لا يثمـر تفاحـاً، ولم أكـن أشـاركهما الحديث لصغر سني، ولكن مَثَل أبـي إبـراهيم ظـلَّ عالقـاً في ذهـني حتى اليوم، فرحمة الله على أبي إبراهيم وعلى أبـي وأسـكنهما الله فسيح جناته.

✧ ❀ ✧

ما غيَّروا شكل الإبريق

كـانَ أبـو العبـد في نهايـة العقـد الخـامس مـن عمـره، وكانـت شواربه البيضاء الطويلة تبدو عليها صُفرة من أثر دخـان السـجائر التي كانت لا تكاد تفارق شفتيه، وكان عنده محل تصـليح إطـارات للسيارات الصغيرة، وكان دائمـاً عصـبيّ المـزاح لا تسـمعه إلا سـابّاً

لاعناً وشاتماً، وأكثر ما يثير حفيظته هم العرب، فينفخ متذمراً منهم ومن تأخرهم عن الأمم ويقول: "العرب من أربعين سنة ما قدروا يغيّروا شكل الإبريق"، ثم يطلق سبابه ولعناته عليهم بغير حساب.

وها قد مرت أربعة عقود أخرى بعد قصة أبي العبد، فهل يا ترى غيّر العرب خلال هذه الفترة شكل الإبريق أم بقي على حاله حتى اليوم.

عَاشُور "يَدِبّ" الابريق.

كانَ عَاشُور رحمهُ اللهُ قروياً بسيطاً وطيِّبَاً، وكانَ عندما يمشي ينحني قليلاً إلى الأمام بسبب آلامٍ في ظهرِهِ لكثرة ما عملَ وانحنى على محراثٍ كانت تجرّه بغلتُه الأليفةُ الهادئة.

وكانَ عاشور يُحِبّ الربابـةَ حبـاً شـديداً، ويُـتقن العـزفَ عليها بألحانٍ شعبيةٍ مختلفـة، وعنـدما يَجُـرّ عليهـا تصـدح تحتَ أنامله وكأنها تُعَبِّر عن شعور الحزن الكامنِ في نفسـه، فيُتْبِعها أبياتاً شجيّةً من سيرة أبـي زيـد الهلالـي وتغريبـة بني هلال.

وكانـت ربابـة عاشـور تختلـفُ عـن بنـاتِ جنسِها، فقـد صنعها لنفسه بطريقةٍ خاصّةٍ ومميَّزة، فلم يجعل هيكلها مـن الخشب المغطّى بالجلد المشدود، بل جـاء بتنكـةٍ معدنيـة مـن "غالونات" زيوت السيارات، وقصّ فوَّهتهـا الناتئـة وأغلـق محلها بقطعة صغيرة ألحمها بالقصدير.

أما عمودها فجعله من خشب البلُّوط المتين، ونَحَتَ رأسَـهُ من الأمـام علـى شَـكْلِ رأْس أفعـى، أمـا وَتَرُهـا الوحيـد فلـم يجعله من سبيب الخيل كما في سائر آلات الربابة، بل جعله سلكاً معدنياً رفيعاً شَـدَّهُ بإحكـامٍ مـن طَرَفيـه ورَفَعـه قلـيلاً

على خشبةٍ صغيرة منحوتة على شكل كرسي اسمها غزالة الربابة.

أما القوس فجعل وتره من سبيب الخيل، ومسحَ عليه بحصى اللبان، حتى أصبح خشناً يُخرج لحناً حزيناً إذا ما مرّ على ذلك الوتر اليتيم.

وكانَ عاشور يُجيد عزف لحنٍ خاصّ أكثر من غيره، حتى تشعر عندما تسمعه وكأنَّ الربابةَ تكاد ترقص رقصاً.

وكان يأتي دائماً عندما نذهب لبلدهم فيسهر هو وأبي وبعض مَنْ هُم في جيلهم، ويعزف هو على الربابة ويغني قصائد من بطولات ذياب بن غانم وسيرة بني هلال.

وكانت أحاديثه طيبة رائقة، ترتاح لها النفس وتأنس لها، وحدَّثنا ذات مَرَّة بأنه عندما كان صبياً، جاءهم بدويّ وطلب منه أن "يَدِبّ له الإبريق" ليشرب، فما كان من عاشور إلا أَنْ أخذ إبريق الفخَّار وصعد عدّة درجات وألقى

به إلى الأرض فتكسر وتناثرت أجـزاؤه، وعنـدما لامـوه علـى ذلـك قـال بأنــه لم يفهــم القصـد، لأن في لغـتهم كلمـة "دَبّ" تعني سَقَط، ودَبّ من على البهيمة: سَقَط مـن عليهـا، أمـا في لغة أهل النقب فدَبّ تعني مَلأ، ودَبَّ الإبريق ملأه ماءً.

وكانت هذه تجربة عاشور الأولى مع أهـل الصـحراء، ثـمَّ تعرّف عليهم فيما بعد وزارهم مراراً في النقـب، فرحمـة الله على عاشور وأسكنه فسيح جناته.

❀ ❀ ❀

أَبُو نِمر وحَكَايَاتِه

كانَ أبو نمر قرويَّاً بسيطاً، وكانت فيه صِفَات القَـرَوِيّ الأصـيل، من النَّخْوَة والشَّهَامَةِ والكَرَم ، وكانت له بَغْلَة كَبيرة يَحْرث عليها في الأراضي الجبليّة الوعرة لأهل قَرْيَتِـه، وكانـت أحاديثُـه هادئـةً طيِّبة تجعلك تستمع إليه بشَغَف، وحَدَّثَنا ذات مَرَّةٍ فقال:

كان الفلاحـونَ يجمعـون غِلالَهـم علـى بَيْـدَرٍ كَـبيرٍ في القريـة، وكانوا يجتمعون في كُلِّ يومٍ رجالاً ونساءً يدرسُون وَيُذَرُّون وينظِّفُون الغِلال.

وذات يومٍ حارّ، من أيام الصيف التي يعملـون فيهـا في غلالهـم مَرَّت أَفْعَى طويلة أمامهم وهي تنسابُ بسرعةٍ، فما كـانَ مـن أَحَـدِ الفلاحين إلا وانطلق نحوها وأَمْسَكَ بها من رأسـها، وضـغطَ عليهـا وحملَها ولَفَّهَا حولَ صُلْبِهِ وتَحَزَّمَ بها، وهو يقصد أن تـراه النسـاء فتعجب من قُوَّتِه وشجاعَتِه.

وعادَ الرَّجُلُ إلى البيدر فابتعد كَـثِيرٌ مـن الفلاحـين عـن طريقِـهِ خوفاً من الأفعى التي معه، ولكنه قبل أن يَصِل تَوَقَّفَ وامتقعَ لونُه وتَرَنَّحَ وكادَ يَسْقُط، لأنَّ الأفعى أخذت تَشدُّ نَفْسَها بقُوَّةٍ حول صُـلْبه حتـى تَوَقَّفَت أنفاسُـه، فأبصـرَهُ أحـدُهم وصـاحَ بـالفلاحين قَـائِلاً: أدركوا الرَّجُل فقد قتلته الأفعى، فانطلق أَحَـدُهم وسَحَبَ شُـبْرِيَّتَهُ وأدخلها بين الأفعى وبـين جِلْـدِ الرَّجُـل وشَـدَّهَا إليـه بقُـوَّة فقَطَـعَ

الأفعى إلى نصفين، وعندها وَقَعَ الرَّجُل مَغْشِيًّاً عليه.

رَشَّ الفلاحون عليه الماءَ حتَّى استفاقَ، ورأى النَّاسَ حولَهُ، ورأى النِّسَاء وهنّ مشفقات عليه ولَسْنَ معجبات ببطولته، وأدرك حجم الخطأ الجسيم الذي اقترفه، فنَدِمَ على فِعلته، ويقال إنه بعد هذه الحادثة أَقْسَمَ أن لا يُمسك أفعى بعدَها في حياتِه.

✪ ❀ ✪

شَتْلات سمير

كانَ سَمِير يعملُ في الحمضيَّات، وكان أبي يعمل أيضاً في نفس البيَّارة، وكان يأخذني معه فأساعده وأعمل معه بقدر استطاعتي، وفي شهر آذار كُنَّا نزرع المقاثي، وطلبَ أبي من سمير أن يشتري له بعض أشتالِ البندورة من منطقة غزة، حيث كان يسكن.

وفي اليوم التالي أحضر سمير لأبي أشتالاً صغيرة تملأ قبضة اليد، وعرض عليه أبي أن يدفعَ له ثمن هذه الأشتال إلا أنه رفض،

لأنها بسعر اليوم لا تساوي عدة شواقل.

وأصبحَ سمير بعدها كلّما يرى أبي يسأله قائلاً: "كيف هالشتلات يا أبو صالح"، وكان أبي يشكرُه في كل مرّة.

وذات يوم ضاق أبي بهذه الأسئلة المتكررة، وعندما سأله سمير سؤاله المعهود: "كيف هالشتلات يا أبو صالح"، قال له: الحمد لله، والله اليوم الواحدة منهن بحجم الشجرة، والأولاد يستظلون تحتهن"، وفهم سمير المعنى ولم يعد يسأل أبي مرة أخرى.

☆☆☆

الشيخ وحميره

حدَّثني أَبي رحمَهُ الله: أَنَّ شَيْخَاً مُسِنَّاً كَانَ يقتني عَدَدَاً منَ الحمير، وكانت العائلة تنقلُ عليها الحمولةَ والظَّعْنَ والماءَ وما شابه، وكانت ترعى دائماً بجانب البيت، وفي كُلِّ ليلة كانَ يُذَكِّرُ أبناءَهُ بها ليربطوها في أماكنها حتى لا تفترسها الذئابُ الجائعة.

وظَلَّ الشيخ على تلك الحالة فترةً من الزَّمَنِ، حتَّى ضَجَّ أبناؤه منه، وقالوا له: يا أبانا، مَا قِصَّةُ هذه الحمير التي تُشْغِلُنا بها في كُلِّ ليلة؟.

أَحَسَّ الشَّيخُ باسْتِيَاءِ أَبنائِهِ منه، فَكَظَمَ غَيْظَه وأَسَرَّهَا في نفسِهِ، وأَقْسَمَ أَلاَّ يُذَكِّرَهُم بها مَرَّةً أُخرى.

وَمرَّت ليلةٌ، وَغَابَتِ الشَّمْسُ، وحَلَّ الظلامُ ومَضَى جُزْءٌ من اللَّيْلِ وَلَمْ تَعُدِ الحمير، وَخَافَ الشيخُ على حَميرِهِ، وفكَّرَ كيف يُذَكِّرُ أبناءَهُ بها، وقد أَقْسَمَ بالأمسِ ألاَّ يُذَكِّرهم بها، ووجدَ أخيراً حيلةً طريفةً يُذَكِّرُ بها أبناءَهُ ولا يَحْنَثُ بيمينه، فوقفَ بجانِبِ البيتِ وَرَفَعَ صوتَهُ وأَخَذَ يَنْهَقُ كَالحَمِير: هَاق، هَاق، هَاق..

ففَطِنَ الأبناءُ لحميرهم وانطلقوا يبحثون عنها، ولكنَّهم وجدوا الذئابَ قد فتكت بها جميعاً، فعادوا يَضْرِبُونَ أَكُفَّ النَّدَم وَيَلُومُونَ أَنْفُسَهُم، ولكن في وقتٍ لَمْ يَعُدْ ينفع فيه النَّدَم.

◉◉◉

الواقع الجميل

كان في بداية طريقه الأدبي، فقرّر أن يعانقَ الشمسَ، ولكنه رآها بعيدةً وكبيرة ولا يستطيع أن يُطوّقَها بذراعيه، فترك الموضوع.

نظر نحو القمر، فأعجبه نوره الخافت، وبياضه الهادىء، وتمنّى لو يضع رأسه على ذراعه، ويغفو قليلاً، ولكن ذلك كان صعب المنال، فعاد إلى نفسه وترك الموضوع.

مَرَّ نسيمٌ ناعم فأنعش نفسَه، ودغدغ أوتار روحه، فأراد أن يتبعه ويرافقه، ولكنه كان ثقيل الجسم ولا يستطيع مجاراة النسيم في خفته، وفي هفهفاته الناعمة، فيئس وعاد إلى نفسه وترك الموضوع.

كان يريد أن يعانق الشمس، ويرتمي في أحضان القمر، ويرقص مع النسيم، ولكنه في كلِّ مرة كان يرى أنَّ الخيال شيء، وأنَّ الواقعَ شيء آخر.

فكَّرَ وفكَّر، ثم أمسكَ بقلمه النحيل، وأخذ يكتب:

تعالي إليَّ حبيبتي..

وقبل أن يُكمل الجملة التالية، كانت يدٌ ناعمة حانية تربت على كتفه، وصوت ناعم رخيم يقول بما يشبه الهمس:

خذ الشاي يا حبيبي..

نسي الشمس والقمر وهفهفات النسيم، واستدار نحوها، وهو يبتسم ابتسامة أعادته إلى الواقع الجميل.

أعادته إلى الواقع الجميل.

❀❀❀

جزيرة الراحة

رَكِبَ سفينةَ القَلَق، ومخرَ عبابَ العناءِ والتَّعب، أدار حيزومَها نحو جزيرة الراحة، وشواطيء الهدوء والسكينة، رأى النوارس تحوم حوله بأجنحتها الطويلة بحركاتٍ

لولبيــة، اشـتدّتِ الـريح، مـال الصَّـاري قلـيلاً، وانحــرف الشِّراع، كانت جزيرة الراحــة تبـدو بعيـدة في الأفـق، وكـان يُمَنِّي نفسه بالوصول إليها في وقتٍ قريب، ارتفعـتِ الأمـواج واصـطخبت في هـديرٍ مسـموع، تهـادت السـفينة تعلـو تـارةً وتـهوي أُخرى، وانحرف المسـار، وأخـذت الجزيـرة تختفـي شيئاً فشيئاً حتـى تلاشـت معالمهـا، وظلـت الأمـواج تتقـاذف به، وهو ما زال يحملق في الأفق البعيـد لعـل الجزيـرة تبـدو له من جديد، لعلها تبدو له من جديد..

❀✪❀

نستجدي على قارعة الشعر

نستجدي على قارعة الشعر، نبسط يداً، نُظهـر ضـعفاً، نَعصـر فكراً، نُمسك حرفاً، يهرب آخـر، نكتـب كلمـة، نُـردف أخـرى، نجمع بيتاً، لا يصلح هذا للشعر.

نتــأوه حينــاً، ننظــر في ســقف العقــل، لا نبصــر شــيئاً، اللــوح نظيفٌ، من أين تجيء حروف الفكر.

نتذكّر حُبَّـاً، نتصـوَّر عطفـاً، نتخيَّـل ليلـى تختــال بمشـيتها، كغزال يمشي فوق الصخر.

نُمسك خيطاً، نجذب آخر، نتمطَّى كالليل، نرسم موجاً، نرسـم ريحاً، وقبطاناً في عمق البحر.

نتثاءب تعباً ونعاساً، لم نكتب شيئاً، وَلَّى الليلُ، بزغ الفجـر، ولم نكتب شيئاً من شعر، لم نكتب شيئاً من شعر.

الكتابة والتعبير

نُعَبِّرُ بالكتابــةِ شِـعْراً ونثــراً، ولكــنَّ الكتابــةَ مهمـا بَلَغَـتْ مِـنَ الفصاحةِ والبلاغةِ والبيان لا يُمكنُهَا أَنْ تُصَوِّرَ الإحسـاسَ الحقيقـيَّ الذي نُحِسّ به، ولكنَّها تَنقلُ صورةً يُمكن أَنْ نتخَيَّلَ الإحساسَ من خلالِهَا، بدرجةٍ تَقِلُّ أو تَزِيد حسبَ وضعِنا النفسيّ.

كيفَ لنا أَنْ نُعَبِّرَ عن حَسْرَةٍ تتبعُها عَبْرَة، وكيفَ لنا أَنْ نُعَبِّرَ عن نشيجٍ مبحوحٍ يقفُ في الحَلْقِ كبكاءٍ خانقٍ صامِت.

كيفَ لنا أَنْ نُعَبِّرَ عن حُزْنٍ عميقٍ أو تَوَتُّرٍ يَتَمَاوجُ في أنحاء الصَّدْرِ، أو عن كآبةٍ تكادُ تشلُّ حَرَكَةَ الرُّوحِ في البَدَن.

تعلمنا في عِلْمِ الالكترونيات، أنَّ الصوتَ الذي نسمعه في الأجهزةِ الالكترونية ليس صوتاً حقيقياً، ولكنه ذبذبات وترددات كهرومغناطيسية تُحَاكِي صوتَ الإنسانِ ولكنَّها ليستِ الصَّوْت نفسه، وهكذا هي الكتابة نُعَبِّرُ بها عن شعورِنا، ولكنّ الشعورَ الحقيقيّ يظلُّ بداخلنا، وما ننقل إلا صورته أو ظلاله على الورق فقط.

أيتها الحروفُ الجميلة

أيتها الحروفُ الجميلة، أيتها الكلماتُ الرقيقةُ المُعبِّرة، كلَّما طالت العِشْرَةُ بيننا، كلَّما كانَ الشوقُ إليكِ أكبر، وكلما كانَ الحنينُ أشدّ وأعظم.

في حلكةِ الليل، وهَدأةِ الضجيجِ والصَّخَب، نبدأُ المسامرة، تُصغينَ إلى أنينِ قلبي وخلجاتِ فؤادي، وشرودِ عواطفي وهفهفاتِ روحي التائهة.

تُفْضِي إليكِ الروحُ بما تُحِسُّه وما تعانيه، وما يدور في النفس وما ينساب في أخاديدِ المشاعر.

في هدأةٍ وصمت يخفت الصوتُ وتتناجى الأحاسيسُ بكلماتٍ أثيريةٍ لا صوت لها، تُرفرفُ بهدوءٍ في فضاءاتٍ حالمةٍ وسديمٍ هادئٍ مسحور.

سنوات طويلةٌ من العُمرِ تَمُرُّ في الذاكرة بسرعةٍ روحيةٍ لا تعرف حدودَ الزمن، تقفز فيها الروحُ من غصنٍ لغصن، وتُرفرفُ

فوقَها فَرَاشَاتُ النفسِ من زهرةٍ لزهرة.

في هدأةِ الليل، وبين نُعومةِ الحروفِ ورِقَّةِ المعاني يَضُوعُ عبيرُ النفسِ بآهاتٍ حبيسةٍ وزفراتٍ مكبوتةٍ تنطلق من عقالها لتُعَبِّرَ عن شعورِها وتسكب قواريرَ أحاسِيسِهَا.

أيتها الحروفُ الجميلة، يا موطنَ الروحِ وموئلَ النفسِ ومسرحَ العواطف، أَعودُ إليكِ مثقلاً بهموم الحياة ومشقَّة العيش، وأُلْقِي لديكِ حقيبةَ السَّفَر.

أيتها الحروف الجميلة، أعودُ إليكِ وحيداً، وأظلّ وحيداً، أظلّ وحيداً.

❀ ✯ ❀

أيَّتُها الكلمات اعذريني

أيَّتُها الكلمات اعذريني، إذ لم أَجِدْ بكِ أداةً للتعبير.

إنَّ الألمَ يُحَسّ بهِ ولا يُكتب

وإنَّ المرارةَ تبقى في النفسِ ولا تسيلُ على الورق

وإنَّ الجرحَ ينزِفُ دماً لا حِبْراً

وإنَّ الحزنَ يُفَتِّتُ النفسَ ولا يُبَعثرُ الحروف

أيّتُها الكلمات اعذريني أعذريني

فالجرح أعمقُ من أن تحملَه الألفاظُ أو تُعبِّر عنه الكلمات.

اعذريني.. اعذريني.

أهربُ منّي إليكِ

وأهربُ منّي إليكِ..

أَهْرُبُ إليكِ عندما تتقاذفني أمواجُ الحُزْنِ، وتدفعني أعاصيرُ الكآبةِ إلى ظلمةِ اليأسِ والقُنوط.

أهـربُ إليـكِ عنـدما أكـونُ وحيـداً، مُنْفَـرِداً بنفسـي، متأبطـاً أحاسيسي، ومختلياً بمشاعري وهُمُومِي.

أهـربُ إليـكِ عنـدما تتـزاحم الأفكـارُ مرفرفـةً في سمـاءِ مُخَيِّلَتِـي وفضاءاتِ رُوحِي.

أهربُ إليكِ عندما يخونني هدوئي وتخونني أعصابي.

أهربُ إليكِ لأَنْثُرَ بينَ يديكِ قلائدَ همومي، وعقودَ كآبتي وأحزاني.

أهربُ إليك لأُنَفِّسَ كَرْبَاً تَلَوَّى بينَ حنايا روحي وثَنَايا فُؤَادي.

أهربُ إليكِ أيَّتُها الكتابةُ، يَا آلةَ التَّعْبيرِ، وَيَا مُسْتَوْدَعَ المشاعر.

أهربُ إليكِ وأُغمِضُ عَيْنَيَّ وأسحبُ من أعماقِ روحي ما يُقْلِقُ النَّفْسَ ويُرْهِقُ الرُّوحَ، أَسْحَبُهَا نَشْلاً وَمَتْحَاً، لِتَسْتَقِرَّ على صَحَائِف أَلَمِـي

وبقايا جُرُوحي.

أَهْرُبُ إليكِ أيتها الكِتَابَةُ لأنَّني لم أَجِدْ مَنْ أَبُوح له بلَـوَاعِج حُزْنِـي وَانفعالاتِ فُؤَادِي.

أَهْرُبُ إليكِ، وَلَوْلا هُدُوئِي لَدَيْكِ لَمَا هربتُ إليكِ، لَمَا هربتُ إليكِ.

حليق الوجه

وتضيقُ الدنيا في وَجْهِي فأراها أَصغر مـن خُـرْمِ الإبـرة، ويقـولُ لي صديقي: ما بكَ اليومَ قد تَغَيَّرَ وَجْهُك، وتغيرت سِحنتك، هـل لأنَّكَ غير حَلِيق الوَجْه، وَحَتَّى لو كنتُ حليق الوجه، فكيف أكـونُ حليق القلب، كيف أكونُ حليق القلب.

قلبي يشدو كالكروان

في نفسي أفكارٌ تُحلِّقُ كسربِ حماماتٍ بيضاء، ترفرفُ حيناً، وعلى قمم الآمال تحطّ حمولتها.

تحلم أنّ الناسَ سيصيرون كفراخٍ في عشٍّ عالٍ، كأطفالٍ يُناغون بصمت، ويبتسمون ببسماتٍ أطهر من نور الشمس، وأنقى من نسمات الفجر.

تحلُمُ أنّ الخيرَ سيعمّ الكون برمته، يتقهقر منه الشر، ويلمّ سواد عمامته ويذوب في ليل الظلمات.

ما أجمل أن يبقى الناس... لكن؟

حاولت أقصّ جذور ال "لكن" لكني أخفقت، لا أخجل أن أُعلنَ للناس بأني أخفقت، لا أرغب في معرفة الوجه الآخر، حسبي أن أقطف ثمرات الخير وحبات الصدق.

حسبي.. لكن يا ربي بين الحين عباراتٌ جوفاء، تصدمني أفعالٌ سوداء، تصدمني أشياءٌ تخجل حتى أن تُدعى أشياء.

حاولتُ أغطّي عينيّ، أرفرفُ فوق تفاهات الناس، لكن.. تباً أعود إليها، أستدرك عبارات تتأوه من عمق الآهات.

تمنيتُ لو أُخرجُ "لكن" من قاموس الكلمات، أُبعدها حتى تهوي في قعر سلال الظلمات.

حوّمتُ كفراشة حقل تائهةٍ لا تدري أين تبيت، كعصفورٍ يجرّ جناحيه المكسورَين، يئن في عمق الفلوات.

أحببتُ يا ربي أن أبصر هذا الكون جميلاً، تسمو فيه الأخلاق، وتنمو فيه الخيرات.

لكنّ الناس أضاعوني، عصروا لُبّ عظامي، ورموني كأشلاء الأموات.

سأظل يا قلبي كالكروان أشدو في ظلمات الليل، وأصدح كالشحرور يسقسق في حضن الغابات.

ستظل تغرد يا قلبي.. تمجد في الناس الخير..

وتدعو الرحمةَ للأموات..

الفُتَات

كان يُقعي في زاوية، يتثاءب أحياناً، وينظر إلى المارة بعينين فيهما أسىً وحسرة، يلتفت يمنةً ويسرة لعلَّ وعسى، وعندما رمى أحدهم كِسْرَةً يابسةً إليه قفزَ من مكانه، والتقطها قبل أن تصل إلى الأرض، وقضقضها بنَهَمٍ ولهفة، ثم انتصب واقفاً، وهزَّ ذيله بكِبْرٍ وخُيلاء، وأخذ ينبح نباحاً أشبه بالهرير منه بالنباح.

❀❀❀

باذنجان أم بيض الجان

أتأملُ أحياناً في أصولِ بعض الكلمات، وربما أسرحُ بالخيالِ قليلاً، وأنبش مخزونَ الذاكرة فتتجمّع لديّ بعض المعلومات، ثم أعود لبعض المصادر والمراجع اللغوية وأضيف منها ما يؤدي

الغرض، وكانت لي جولة مع الباذنجان.

عندما كنا صغاراً، وقبلَ الاختلاط الذي حدثَ فيما بعد، كنا نسمع من أهلنا كلمة "بيظِلْجَان"، هكذا كانوا يلفظونها، وأهل الصحراء جميعاً، وليس في النقب وحده يلفظون الضاد ظاءً، فيقولون: أَرْظ، وظَرَب، عَن أَرْض وضَرَب. وقد ذكرتُ ذلك لأُبيّن أن الظاء في بيظلجان هي ضاد.

ونبتة الباذنجان كما تقول بعض المراجع أصلها من الهند، وكانت للعرب تجارة رائجة مع الهند، حيث جلبوا البهارات والبخور والبُن وغيره، وربما رأوا ثمرة الباذنجان السوداء هناك، ولم يكونوا يعرفونها من قبل، ورأوا شكلها البيضاوي، وهي ليست بيضة ولا لونها لون البيض، وكانوا ينسبون كلّ غريبٍ أو خارقٍ إلى الجِنّ، فأطلقوا عليها "بيض الجان" ولفظوا الضاد ظاءً فصارت "بيظ الجان".

وبما أن تجارة العرب كانت رائجة فمن غير المستبعد أن تنتقل

الكلمة إلى بلدان أخرى، وإذا كان الغربُ قد أخذوا عن العرب مفردات الطبّ والرياضيات وغيرها، فما الذي يمنعهم أن يأخذوا هذه الكلمة من العرب، وما كلمة **eggplant**، إلا دليل على أن أصل الكلمة "بيضة"، كما تعني كلمة "**egg**".

ولو تتبعنا لغات العالم واستعنا بمترجم غوغل الذي يلفظ الكلمة لوجدنا معظم الكلمات التي تعني هذه الكلمة تشبه الكلمة العربية في كلها أو بعضها.

❀✿❀

حَرْقة حَنًّا وجِدْيَانه

هذا مثلٌ سمعتُه في صغري، وما زالت عائلتنا تستعمله حتى اليوم، وربما تستعمله عائلاتٌ أخرى غيرها، وهو يُشبه المثل: "فخّار يكسِّر بعضه"، ويعني ليذهب هذا الشخص أو هؤلاء القوم

إلى الجحيم، ولا تعود لهم عائـدة، وهنـاك عائلـة تعبّـر عـن ذلـك بعبارة أخرى فتقول: "ما خَلُـق"، أي لنعتـبر أن الله لم يخلقـه ولم نعرفه، ولا حاجة لنا به.

هذا هو معنى المثل وهذه طرق استعمالاته، ولكـن مـن هـو حنَّـا المذكور هنا، ومن أين جاء للمثل الذي يستعمل في البادية.

ويبدو أن المثل قد طرأ عليه تغييرٌ وتحريف، وهذا ما اكتشـفته بالصدفة خلال مطالعتي لكتاب "تاريخ ولاية سليمان باشا العـادل" للمعلم إبراهيم العـورة، وهـا هـي قصـة المثـل بشـيء مـن الإيجـاز والتصرّف:

كـان إبـراهيم قـالوش دمشـقيّ الأصـل وهـو مـن طائفـة الـروم الكاثوليك، وقد هاجر مع أهلـه إلى عكـا، ودخـل في خدمـة الشـيخ ظاهر العمر الزيداني، ولما تـولى الجـزار حكـم عكـا جعلـه رئـيس كُتَّـاب ديوانــه في عكـا، وذات يـوم فـرَّ إبـراهيم قـالوش مـن وجـه الجزَّار وأقام في قلعة الحصن مدة مع أهله، ولما تولى الجـزار إيالـة

الشام أوعز إلى بني موسى الحنا مشايخ وحكّام بلاد الحصن من طائفة الروم بالقبض على إبراهيم قالوش أو بقتله، فأخذوا يترقبونه إلى أن ساروا معه إلى الصيد وهناك غدروا به وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى الجزار مع أنه كان في حماهم وذمتهم، ولحقهم بذلك من العار ما لحقهم، وكان الناس من أهل تلك البلاد يتغنّون بهذه الأغنية لشجب خيانة بني الموسى:

دُوسِي يا بِنْتِي دوسي ..... على لحية حَنّا الموسي

يحرق حَنّا وجدوده ..... اللي سَلَّم قالوشي

ومن هنا نرى أن أصل المثل هو "حرقة حنا وجدوده" كما ورد في الأغنية المذكورة، ولحقه التحريف بسبب تغيّر الزمان والمكان وأصبح يلفظ في منطقتنا "حرقة حنا وجديانه" دون أن يعرف أحد مصدره الحقيقي الذي هو ما أذكره هنا.

المصدر: تاريخ ولاية سليمان باشا العادل: للمعلم إبراهيم العورة، هامش الصفحة ١٣ من الكتاب، والكتاب موجود على الشبكة.

هرماس

كان يُدعى "هِرْمَاس"، ويعمل مُرافعاً شرعياً أو ما شابه ذلك في المحكمة الشرعية في بئر السبع، واحتاجه أخي لبعض الأمور فذهبنا إليه في منزله، وشرحنا له القضيّة فذهبَ معنا لقرية قريبة من رام الله، ولم يتكلّم خلال ذهابنا لتلك القرية، بل ظَلَّ صامتاً طيلة الطريق، وعندما عُدنا بدأت أتكلم معه في الأدب والشعر واللغة وتاريخ الأدب العربي وغيره، وانطلقت أساريره فتكلمنا كثيراً حتى اقتربنا من منزله، فقال مازحاً: هل تدرون لماذا لم أتكلّم معكم في الطريق، قلنا: لا، قال: كنتُ أظنّ أنه لا أحد معي، وضحكنا معاً وأرجعناه لبيته.

وها قد مرت عقود انتقل فيها هرماس لجوار ربّه، وتذكّرت قصته اليوم فرحمة الله على روحه وأرواح المسلمين كافة.

❀ ❀ ❀

كثرة الشد بترخي

يقولون: "كَثْرة الشَّدّ بتِرْخِي"؛ أي أنّ كثرة التشدّد في بعض الأمور تزيدُ من تعقيدها، وتجعل حلَّها صعباً وعسيراً، كما تؤدي كثرة الشدّ في الحبل إلى ارتخائه وإضعاف قوَّته وجعله هشَّاً ضعيفاً.

وقبل عدّةِ أيّامٍ تحدَّثتُ مع أحدِ الشيوخ، ودارَ حديثُنا عن الصَّلاةِ وما إليها، فقالَ لي: إنَّه بَدأَ يُصَلِّي وهو في سِنٍّ مُبَكِّرة، وحَدَثَ أنْ صلَّى وراء شَيْخٍ شَابّ في منطقة رَفَح، فقال له الشيخ: صلاتك غَلَط، أعد الصلاة، فأعادها، فقال له مرة أخرى: صلاتك غلط أعدها، وهكذا فَعَل أربع مَرَّات، وكانَ الضيقُ قد أَخَذ من صاحِبنا كُلّ مأخذ، فسأله الشيخ مستفسراً: كيف تُصَلُّون أنتم في بلادكم، فقال له: نقف على رِجْلٍ واحدةٍ هكذا ونُصَلِّي، ورفعَ رِجْلَه ليريه كيف، ففهم الشيخ أنه أثقل عليه فتركه ولم يَعُد يضغط عليه بعدها.

الحُمَّى وتَأْثِيرها عَلَى الإِبْدَاع

يتعرّض الإنسانُ في رحلةِ عمرِه إلى حالاتٍ مختلفةٍ منَ المرض، يكونُ بعضُها مصحوباً بنوباتٍ من الحُمَّى وارتفاعِ حرارةِ الجسم، وقد لاحظتُ منذُ وقتٍ طويلٍ أَنَّ هذهِ الحُمَّى لها تأثيرٌ عَلَى الدِّمَاغ، وبالتالي تأثيرٌ عَلَى العَقْل، وَكأنَّ حرارةَ الجسمِ تُسَخِّنُ الدَّمَ في الشَّرايين فيصبح أكثر ميوعةً وتدفقاً الأمر الذي نلمسه في تصرفاتِ المحمومِ وتَفَتُّقِ ذِهْنِهِ وقريحتِه، فنراهُ يترنّمُ مرّةً بالغناء، وأُخْرَى بالقَصَائدِ والأَشْعَار، ويَهْذِي في حَالاتٍ أُخرى.

وفي لُغَةِ العَامّةِ في النَّقَب يقولون عن الذي يَهْذِي من الحُمَّى: "هَاتَى الْمَرِيضُ، يُهَاتِي مُهَاتَاة"، أَيْ هَذَى بِكَلامٍ غيرِ مَفْهوم، ورُبَّمَا أَصْل الكَلِمَة من "هَات الشَّيءَ"، بِمَعْنَى أَعْطِنِي إِيَّاهُ وَنَاوِله لِي."، فَالمريضُ يُكْثِرُ مِنَ الطَّلَبَاتِ بقولِهِ: هَاتُوا لِي أُمِّي، وَهَاتُوا لِي أَبي، وَهَاتِوا لِي الطَّبِيبَ، وَمِثْل هَذه الهَاتَاتِ الكَثِيرَة.

ولا يَخْلُو عَـالَمُ الأَدَبِ مِـنْ حِكَايَـاتٍ طَرِيفَـةٍ وَمُمْتِعَـةٍ مَـعْ هَـذِهِ الحُمَّى الَّتِي تَدِبُّ في العِظَام.

فَهَـا هُـوَ الْمُتَنَبِّـي يَشْـكُو مِـنَ الحُمَّـى، وَيُصَـوِّرُ حَالَتَـهُ معهـا، وَيَقُول:

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً * * فَلَيْسَ تَزُورُ إلاَّ في الظَّلامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالحَشَايَا * * فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ في عِظَامِي
يَضِيقُ الجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وَعَنْهَا * * فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السِّقَامِ
فَإِنْ أَمْرَضْ فَمَا مَرِضَ اِصْطِبَارِي *** وَإِنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اِعْتِزَامِي

أما الشَّاعِرُ الحَضْرَمِيّ علي أحمد باكثير، فَيَقُول:

وَهَا أَنَا اليَوْم مَحْمُـومٌ عَلَـى وَهَـجٍ *** مِـنْ حَـرِّ سُـقْمِي وَرَأْسِـي بِالصُّدَاعِ بُلِي

حَرَّان بِالقَلْبِ مِنْ نَارِ الذُّنُوبِ وَمِنْ *** نَارِ السّقَامِ فَجُدْ بِـالبُرْءِ مِنْ عِلَلِي

وفي قصيدةٍ أُخْرَى يَدعُو رَبَّهُ ويَقُول:

وَقَدْ أَلَمَّتْ بِيَ الحُمَّى الشَّدِيدَةُ يُذْ *** كِيهَا الصُّدَاعُ وَمِنْكَ البُرْء مَسْؤُولُ

فَاغْفِرْ ذُنُوبِي وَجُدْ بِالبُرْءِ مِنْ عِلَلِي *** بِجَاهِ مَنْ جَاءَهُ بِالوَحْيِ جِبْرِيلُ

أما الشاعرة طلعت الرفاعي، وهي طبيبة كما يبدو، فتقول في قصيدةٍ بعنوان "حبة الأسبرين":

ماذا تقول أأربعين ؟

بلغتْ حرارتُك الأثيمةُ أربعين

شُلَّتْ شِمَالِي وَاليَمِين

يَا لَيْتَنِي عَنْكَ المَرِيضَة

يَا لَيْتَنِي كنتُ الطبيبة

في يدي كأس الدواء

يا ليتني كنتُ الفِدَاء

يا ليتني تلكَ الفراشة

لا تَكِلّ ولا تَلِين

أمضي فأَجْمَعُ كُلَّ أنْداءِ الوُرُود

وَرَحِيقَ كُلّ اليَاسَمِين

وأَصُبُّـهُ روحاً وريْحَاناً

على ذاك الجبين

وأبيتُ ليلي حانية

أرجو إليك العافية

تأتيك في دفء الصبيحة

في صُدَاحِ العندليبِ

وتقول للحُمَّى ارحلي

هذا .. حبيبي !

❀❀❀

موقعك في الجملة

أحياناً موقعك في الجملة يُحتِّم عليك أن تكونَ ايجابياً في كلّ الظروف، وعليك أن تضع أحزانَك في صندوقٍ من الذهب وترمي بها إلى بحرٍ من الابتسامات، كما فعل جبران من قبل مع مي زيادة.

يجب أن تكون بشوشاً مبتسم الثغر، وأن تُجامل الناس حتى لو كنتَ تردد بينك وبين نفسك ما قاله الأخطل الصغير من قبل:

أفحتم عليّ إرسال دمعي ... كلما لاحَ بارقٌ في مُحَيَّا.

إن الصورة الجميلة التي انطبعت في أذهان الناس عنك، يجب أن تحافظ عليها، أما همومك وأحزانك وأمورك الشخصية، فدعها في الصندوق الذي ذكرناه أعلاه.

❂❁❂

واشع وتوشّع

اتصل بي زميلٌ وقالَ ضَاحِكَاً: قلتُ بيني وبين نفسي أُريد أَنْ أُوَاشِع فُلاناً؛ أي أذهب إليه دونَ سابقِ إنذار، وبعد أن خرجت الكلمة بشكلٍ تلقائيّ، قلتُ: من أين أَتَتْ لي هذه الـ "أُوَاشِع"، وقالَ: اتصلتُ بكَ رغمَ أنِّي أَعْرِفُ معناها لتبحثَ عنها وتنشر ما توصَّلْتَ إليه.

والحقيقة أنَّ هذه الكلمة من الكلمات المستعملة عند أهل النقب، وعند سكان الباديةِ بشكلٍ عامّ، وهم يقولون: وَاشَعَتْهُ بطنُه: بمعنى ثارت عليه آلامُهَا وأوجاعُهَا من مَغْصٍ ونحوه.

ويقولون: وَاشَعوهم مع الفَجْر: أي جَاءوهم في ساعَاتِ الفَجْر.

ويقولون: تَوَشَّعنا السَّيْلُ: بمعنى اِنْدَفَعَ نَحْوَنَا بقُوَّة. وتَوَشَّعَهم الجَيْشُ: اِنْدَفَعَ نَحْوَهم بقُوَّتِهِ وَعَتَادِه، وَتَوَشَّعَتْهم الإِبِلُ: اِنْدَفَعَتْ نَحْوَهُم بجمُوعِهَا وَقَدْ تَدُوس مَا يَكُون أَمَامها. وكذلك تَوَشَّعَتْهُم الكِلابُ، وَتَوَشَّعَتِ الذِّئَابُ الغَنَم بمعنى اِنْقَضَّتْ عليها.

ومِنْ هنا نَفْهَمُ معنى كَلِمَة "وَاشَعَ" مماًّ ذكرنَاهُ في السِّيَاق، ونَرَى أيضاً أَنَّ المعنى الحَقِيقِيّ لكلمة تَوَشَّعَ يَتَوَشَّع، هـو: اِنْـدَفَعَ نَحْـو، وَانْقَضَّ عَلَى..

وعند الرجوع لمعاجم اللغة وجـدتُ أنَّهـا تَحُـومُ حَـوْلَ الكَلِمَـة، ولكنَّها لا تعطي المعنى الدَّقِيق لها، وفي لِسَانِ العَـرَب: "وَتَوَشَّـعَتِ الغَنَمُ في الجَبَلِ إِذَا ارْتَقَتْ فِيهِ تَرْعَـاهُ". وَتَوَشَّـعَ فُـلانٌ في الجَبَـلِ إِذَا صَعَدَ فِيهِ. وَتَوَشَّعَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ إِذَا عَلاهُ.

❀❄❀

يُعلِّم الجمل القراءة

يُحْكَى أَنَّ مَلِكَاً ظَالماً كان له جَمَل، وطلبَ مـن النـاسِ أَنْ يُعَلِّمُـوه القراءة، واشترط على من يُوافق على تعليم الجمل أنـه إذا لم يُفلـح فسيكون مصيره القتل، فـأحجم النـاس وتراجعـوا ولم يتقـدّم أحـدٌ منهم لهذا الطلب المحفوف بالمخاطر.

غير أنَّ فلاحاً فقيراً جاءَ إلى الملك وقال أنا أُعَلِّمُ جَمَلَك القراءة، فقال الملك: وهل تعرف الشرط؟، قال نعم. فسأله الملك: وكم من الوقت تحتاج لتعليمه، فقال: احتاج لخمس سَنَوات.

وافقَ الملكُ وأعطاه الجمل وحَمَّلَهُ رِزْقَاً ومؤونةً للجَمَل ومُعَلِّمه، وغادرَ الرَّجُلُ به عائداً إلى بيته، فاعترضه الناسُ في الطريق، وقالوا له: هل أنت مجنونٌ أيها الرَّجُل حتى توافقَ على شُروط الملك، أَلا تعرف بأنّه سيقتلك في النهاية؟، وكيف توافق على شَرْطِهِ وأنت تعلم أَنَّ الجَمَلَ حيوانٌ أَبْكَم لا ينطق فكيف يتعلم القراءة؟.

قال الرجل: أَنَا فقيرُ الحال، فدعوني أَعِيش في بحبوحةٍ خلال هذه الأعوام، ومن يدري ما يحدث خِلالها، فَقَدْ يموتُ الجَمَلُ أو يموتُ الملكُ أو أموت أنا. ثم اقتاد جمله وذهب به.

وفي زماننا كم نُعيد ونُكرِّر فلا يُسمع لنا، ويبدو أنَّ الجِمَال في هذا العصر قد تعلمت القراءة بالفعل.

الوعكة

يبدو أنه لا نصيب لي من صحة البدن إلا قليلاً، هكذا قلتُ مساء أمس لأمِّ العيال بعد وعكةٍ خفيفةٍ أكثرت من زياراتها المتكررة لي في الفترة الأخيرة، ويبدو أنّها لم تسمع بالمثل القائل: "زُر غبّاً تزدد حباً"، أو بشقيقه "الزيارة غارة".

وكلما شعرتُ بشيءٍ من الراحة يُبَاغِتني ذلك المِخْرَز ليفعل أفاعيله في ذلك الجسد المُنهك الذي تَعَوَّد على اللَّطْم، حتى جعل شِعَارَهُ بيتاً للمتنبي يقول فيه: "فَصِرْتُ إذَا أصَابَتْني سِهَامٌ ... تكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ، وربما يُعَزِّي نفسه بالمثل الشعبي: "خَدّ معَوَّد على اللطيم".

وبما أنَّني كالرقَّاصة التي تموت ورِجْلها تهتزّ، فما أشعر بشيءٍ من التحسُّن إلا وأعود أكتب وأقرأ وأُشارك ولو بالقليل.

※❀※

سالم وسلامة

قَالَ سالِم لصديقه سلامة: هل رأيتَ ذلك الكاتب الذي لا يكتبُ حرفاً واحداً إلا ويقصد به إشهار نفسه؟

قال سلامة: وهل في كتاباته تلك ما ينتمي لعالم الأدب؟

أجاب سالم: إنها أشبه ما تكون بالجعجعة من غير طحن، ولكنه بينه وبين نفسه يعتقد أنها من كنوز الأدب ومن جواهر الكَلِم.

قال سلامة: إِذَن، فهو لا يُمَيِّز بين الأدب وبين غيره من الكلام الباهت الهزيل، ولا يَعْرف الغَثَّ من السِّمِين.

قال سالم: لا، بل هو يعرف الحقيقةَ كاملةً، ولكنَّه يُريد أن يفرضَ نفسَهُ على الناسِ فَرْضَاً، ويُضْفي على أعماله هالةً من التقديس، ولم يترك طريقاً للشهرةِ إلا وسَلكها، وهدفه الأول والأخير هو الشهرة وليس السموّ بأدبه إلى الإبداع.

قال سلامة: وهل يستطيع فعل ذلك.

رَدَّ سالم: إنَّه يجد بعض المُصَفِّقين له، والذين يتملَّقونه من أجل مصالحهم الشخصية، فتَعْظُم نفسه ويشعر أنه أتى بما لم يأتِ به أحدٌ غيره.

قال سلامة: وهل يعيش مثل هذا الأدب الذي تتحدّث عنه؟

قال سالم: يُرَوِّجُ له صاحبُه قليلاً، ولكنه يفنى ويذهب كما يذهب غُثَاءُ السَّيْل.

قال سلامة: وهل من نصيحة؟

قال سالم: إنهم لا يَقْبَلُون النصيحةَ، ويرون أنَّهم أعظم ممن يُسْدِي لهم النُّصْح فكيف يَسمعون له، ويخشون أنْ يَحطّ ذلك من قَدْرِهم فيتمادَوْنَ في غَيِّهم ويزدادونَ نَشْراً لهراءاتِهم الهزيلة.

قال سلامة: وهل هناك كثير غير ذلك الكاتب؟.

قال سالم: أجل، إنهم كُثر، ومنهم الشاعر والكاتب والفنان، ومنهم ومنهم كثير.

قال سلامة: وهل في أعمالهم ما يُشَكِّل خَطَراً على الأدب أو ما

يُشَوّه سُمْعته؟

قال سالم: إنهم كالرائحة الكريهة في حديقة الورود، يُشَوِّهُون قليلاً ثم لا تلبث ريحهم أن تتلاشى وتذهب إلى غير رجعة.

تَعِب سالم من كثرة الأسئلة وتناول فنجان قهوته وارتشف رشفة ساخنة منه، ونظر إلى صديقه سلامة وقال: لا خوف على الأدب، فقد أخلصَ له الكثيرون فلا تَحْمِل هَمَّه يا صديقي، لا تَحْمِلُ هَمَّه.

✧✧✧

العَوَرْوَر

كنتُ صغيراً برفقة أبي رحمه الله، عندما رأيتُ نبتةً ذات أزهارٍ صفراء جميلة، فاقتربت منها، ولكن أبي قال لي: لا تلمسها ولا تحرّكها فتتطاير منها أشياء تصيب العين وتؤذيها، فسألته: ما اسمها يا أبي؟ فقال لي: إنها نبتة العَوَرْوَر، التي إذا

أصابت العيون تكاد تُعْوِرُها.

ومرّت سنوات طويلـة، وأنـا أعـرف العـورور، واليـوم وجـدت نبتة صغيرة منها، وتذكرت ما قاله أبي عنها، وربما تلك الأشواك الصغيرة التي تغطـي عروقهـا تتطـاير منهـا كنـوع مـن الـدفاع عـن النفس، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

❊❊❊

غادة

وحينَ يخلو الوِفاض، وأنفضُ ثِفالَ القريحـة، ولا أَجِـد بُـرَّاً ولا دقيقاً، وأبحث بينَ رُسومِ الماضي، فأجد أُثْفِيَةً هنا، وأُثْفِيَةً هنـاك، وعلى ورقةٍ صفراء قديمـة أَجِـد هـذه الرباعيـة الـتي كتبتُهـا قبـل سنوات:

أنتشـــي للشِّعْــرِ، لكــن ... نَشْوَتي الكبرى عِبَــادَةْ
كلَّمــا صَلَّيــْتُ فَجْـــرَاً ... قلــتُ يــا ربّ الزِّيَــادَةْ

هَلْ تُرَى بِالشِّعْرِ نَخْطُــو ... نَحْــوَ أَبْــوابِ السَّعَــادَة
أَمْ تُرَانَــا قَــْد أَضَعْنَــا ... عُمْرَنَــا في حُــبِّ غَــادَة

وكان المرحوم جمال قعوار عندما يراني يقول لي ماذا فعلتَ مع غادة، فرحمة الله عليه ما أكرمه وما أطيبه.

❀❄❀

المحتويات

تم الكتاب والحمد لله تعالى

صدر بدعم من مركز المكتبات والأدب ووزارة الثقافة والرياضة

1 4070193315 0

دار النهضة للطباعة والنشر

מפעלי ספרות | ביכורים

משרד התרבות והספורט

המרכז לספריות וספרות בישראל